مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

تاريخ التسليم في (٢٠١٨/٣/٥م)....تاريخ القبول في (٢٠١٨/٥/٩م)

حوار الحضارات بين تراكمات الماضي وضرورات الحاضر[١]

أ.د/ كمال جحيش

أستاذ العقيدة والفكر المعاصر

جامعة الملك خالد– المملكة العربية السعودية.

[١]-هذا البحث تم دعمه من خلال البرنامج البحثي العام بعمادة البحث العلمي _جامعة الملك خالد_ المملكة العربية السعودية بالرقم: G.R.P ٣٨/ ٤٥٧

مقدمة:

يعيش عالم اليوم وضعا مأزوما، ليس على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو العسكري وحسب، بل وعلى الصعيد الثقافي والأخلاقي أيضا، وقد ازداد الوضع تعقيدا خصوصا بعد أن دخل بعضهم ممن ينتسب إلى الأوساط الأكاديمية على الخط، وأصبح يؤدي دورا تحريضيا، إن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، و تكمن خطورة هذا التحريض في كونه يجعل الصراع ليس مقتصرا على تحصيل النفوذ السياسي والاقتصادي، بل يجعله صراعا ذا طابع حضاري، وهو مؤشر على الانحدار الأخلاقي قبل أن يكون مؤشرا على التزام بعينه يلتزمه المثقف أو الأكاديمي تجاه مجتمعه ومصالحه، ينطبق هذا بوجه خاص على بعض البحوث والدراسات التي صدرت في الغرب وتناولت مسألة العلاقة بين الحضارات، إذ أن بعضها جاء ليؤكد الخط السائد المبني على حشد الكل ضد الكل، أو الكل الغربي ضد الكل الآخر، مغذيا بذلك الصراع القائم، بل ومحاولا تقديم المبررات الكافية لاستمراره، في مقابل ذلك نجد أصواتا خافتة تدعو إلى التعايش، وكثير منها عند الفحص لا يجاوز الحديث عن التعايش داخل المجتمعات الغربية نفسها، بغية حل المشكلات التي فرضتها الهجرة الواسعة إلى هذه المجتمعات من قبل شعوب ذات ثقافات مختلفة المشارب، ومن ثم لم تكن أغلب هذه الأصوات معبرة عن الإنسانية بالمعنى العام، بل إنها تعبر عن معنى خاص بالإنسان الغربي. إن إصرار الغرب على فرض رؤيته على غيره من الشعوب يحمل مخاطر كبيرة على مستقبل الإنسانية كلها، انطلاقا من هذه القناعة نحسب أنه من المناسب العمل على تفكيك المقولات المؤسسة لفكرة الصراع؛ تلك المقولات المبنية في الأصل على وهم يرتد إلى القول بأفضلية عرقية ليس لها أساس في الفطرة البشرية الواحدة. إن مثل هذه المحاولة تقتضي البحث في الخلفيات التاريخية التي شكلت تلك الأوهام بإرجاعها إلى صورها البسيطة، وبيان الطريقة التي تسللت بها إلى الوعي الأوربي الحديث، لتترسخ لاحقا وتصبح قناعة مدعومة بحقائق علمية زائفة، وهي في حقيقتها مجرد آراء مؤدلجة غايتها تسويغ الاستعمار والهيمنة والتسلط.

في المقابل نرى أنه من المناسب لفت الانتباه إلى جملة الثقافات التي لم يقدر لها أن تنتشر بالقدر المطلوب، وهي ثقافات تنطوي على قيم إنسانية عالمية من شأنها أن تدعم السلم وتخفف من حمى الصراع.

يجري الحديث في هذا البحث بصورة أكبر عن الغرب الذي جعل نفسه خصما حضاريا لكل ما سواه، وهو ما قد يبدو حديثا في اتجاه واحد، وربما يكون هذا صحيحا إلى حد بعيد، ذلك أن الغرب نصيبه في المشكلة أكبر من نصيب غيره. ولما كان الأمر في تقديرنا على هذا الوجه

رأينا أن نتوجه إليه بالفحص لإماطة اللثام عن بعض الجوانب ذات الصلة بالحوار والصدام وإمكان التعايش بين الحضارات والثقافات، من هنا أمكن طرح السؤال الآتي: إلى أي مدى يمكن الحديث عن حوار للحضارات وبنائه بصورة عادلة تستوعب كل الحضارات والثقافات؟ هذا السؤال تنبني عليه جملة من الأسئلة الجزئية يمكن إجمالها في الآتي: ماهي جملة العراقيل التي تمنع قيام حوار نافع للإنسانية؟ ما طبيعة هذه العراقيل؛ أهي عراقيل ذات طابع فلسفي متجذر أم هي ذات طابع إجرائي مرتبط بجملة من المصالح السياسية والاقتصادية الظرفية ويمكن التعاطي معها من هذا المنظور؟ إلى أي مدى يمكن أن نقوم بتثوير المخزون الأخلاقي الذي تشتمل عليه كثير من الثقافات من أجل صالح الإنسانية كلها؟. من أجل الإجابة على هذه الأسئلة بدا من اللازم التعريج على تحديد بعض المفاهيم الأولية مثل مفهوم الحضارة ومفهوم الغرب ثم تحديد وفحص الأسس التي قام عليها الغرب، بغرض تكوين صورة واضحة عنه، وبالتالي فهم ما يجري بشكل أوضح، ثم عرض لأهم لما نراه من أفكار مساعدة على إقامة حوار جاد مفيد للإنسانية جميها.

المبحث الأول: الحضارة، الغرب؛ مقاربة مفهومية:

المطلب الأول: الحضارة

أصبح من الشائع استخدام كلمة" الحضارة" لتوصيف حالات الشعوب وأوضاعها وفق معايير متفاوتة، وإن كانت هناك بعض العناصر المشتركة بين هذه التوصيفات، غير أنه في كثير من الحالات تفتقد هذه التوصيفات إلى الدقة كما تفتقد إلى الحياد، وفي أحيان كثيرة يعود هذا الأمر إلى عدم الاتفاق حول المفهوم ذاته، وهو ما يجعل من بحثه ذا أهمية كبيرة، فما مفهوم الحضارة وما ملابسات ظهوره؟ هل المفهوم خاضع للبيئة الثقافية التي يستخدم في نطاقها، أم له مدلول واحد ينسحب على جميع الثقافات العالمية؟

إذا بحثنا في الجذر" ح ض ر" في اللغة العربية لوجدنا أن جذره وجد في القرآن الكريم، لكنه جاء بمعنى الحضور والشهود، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالى:" **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** "(النساء الأية ٨)، والحضر في اللغة خلاف البدو، ولهذا، وأهل الحضر هم ساكنو المدن. أما إذا جئنا إلى المعنى الاصطلاحي، فإن أقرب المدلولات الاصطلاحية ما ورد عند ابن خلدون" فلتعلم أن الحِضارة في العمران أيضاً كذلك، لأنه غاية لا مزيد وراءها. وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحِضارة والتخلق بعوائدها.

والحِضارة، كما علمت، هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل. وللتأنق في كل واحد من هذه، صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها"[٢]، وظاهر أن "ابن خلدون" يستخدم الحِضارة بمعنى ما ينتهي إليه حال العمران، من التفنن في الترف، مثل التأنق في المأكل والملبس والمشرب، وكثير غيرها مما لا يحتاجه أهل البادية، وهو ما يفيد أن بلوغ الحضارة بالمعنى الخلدوني والإسراف في التخلق بعوائدها يورث فسادا في أهلها من وجوه مختلفة، فيكون ذلك سببا في خراب المدينة.

أما الثقافة الأوربية الحديثة، فقد عرفت كلمة "civilisation" ذات الأصل الفرنسي، وكان أول من استخدمها الاقتصادي الفرنسي آن- روبرت- جاك تورغو في العام ١٧٥٢، ونشرها بعد أربع سنوات فيكتور ريكويتي مركيز ميرابو[٣]. و"تدور الحضارة بحسب ما يوحيه أصل الكلمة حول مدنها"[٤].

فالحضارة"civilisation "تحمل معنى التمدن، من المدينة، "وإن كانت مدينة واحدة لا تشكل حضارة"[٥] وهي تشير إلى الحالة التي يصير إليها الإنسان، إذ ينتقل من حال كونه فردا لا يخضع لقانون إلى فرد منخرط في جماعة خاضعة لقانون واحد. ومنها جاء المجتمع المدني الذي يطلق في مقابل المجتمع القبلي، المجتمع الديني، وغيرها، ومن ثم صار المجتمع المدني حالة ترتقي إليها المجتمعات في سلم تطورها، وليست حالة معطاة ابتداء.

ومن ثم أصبحت التجمعات البشرية بكل ما تحتاجه من تنظيمات، وعلاقات عمل جديدة اقتضتها الحياة المدينية دالة على مسمى الحضارة، على أن معناها يكتمل عندما يصير لهذا التجمع هوية محددة تتداخل فيها عناصر متعددة، مثل العرق واللغة والتاريخ والدين وهلم، وهذه العناصر في مجملها هي التي تشكل ما يعرف بالثقافة التي تعطي سائر العناصر معناها، وتجعل هذا التجمع الذي يعيش في نطاق هذه الثقافة يشعر بتميزه عن غيره، فالحضارة بهذا المعنى "ثقافية في خصائصها"[٦]. في هذا الشأن يلفت "هارالد موللر" نظرنا إلى "أن كلمة ثقافة "kultur"في الاستعمال اللغوي الألماني تسود حيث تستخدم حضارة "Civilization"في الخطاب

---

[٢]- ابن خلدون ، المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٣٤٥.

[٣]- نيال فرغسون، الحضارة : كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق. ترجمة: سعيد محمد الحسنية ، ط٢، شركات المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠١٤، ص٣٧

[٤]- المرجع نفسه ص٣٧.

[٥]- المرجع نفسه، ص ٣٨.

[٦]- نيال فرغسون، الحضارة : كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق، ص ٣٨.

الإنجليزي أو الفرنسي، وهذا الفرق ليس صدفة، بل يعكس أساسا مفهومات متباينة تضرب بجذورها في التواريخ العقلية المختلفة، إن جيراننا الأوربيين والأمريكيين كذلك يفهمون تحت كلمة حضارة العدة الكاملة لمجتمع من المجتمعات للتغلب على مشكلات الوجود، في حقبة تاريخية، وذلك يشمل: الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية المميزة، وآداب اللياقة السياسية، وبنية الاستيطان والتربية، وأخيرا أيضا الدين ونظم القيم وعلم الجمال، إن الحضارة إذن مفهوم شامل للممارسة الاجتماعية، وحيثما حملت ممارسة المجتمعات سمات جوهرية مشتركة، فذلك يعني أنها تنتمي إلى حضارة واحدة"٧.

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن الحضارة في منظور الثقافة الغربية تتعلق بصور التفاعل الإيجابي التي يبديها الإنسان تجاه بيئته، فيظهر هذا التفاعل في طبيعة العلاقات التي تربط الأفراد ببعضهم، كما يظهر في عناية الفلاح بأرضه، والعالم بمختبره، والفنان بفنه، والحرفي بحرفته، وهلم، "أما نجاح الحضارة فيقاس ليس بإنجازاتها الجمالية فحسب، بل كذلك، والأهم منها، بطول أعمار مواطنيها، ونوعية حياتهم"٨، إنها تقاس بالمستوى الذي بلغه الإنتاج كما وكيفا، وتقاس بمستوى معيشة مواطنيها، وبمدى قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، مدن هذه الحضارة تقاس بعدد سكانها وبمدى طول أعمارهم، وبنوعية الخدمات التي توفرها لمواطنيها، وبمستوى الرفاهية الذي صارت عليه.

من خلال هذه النظرة يبدو كأن لحضارة الغربية الحديثة إنما صارت إلى ماهي عليه من القوة والهيمنة بفضل قوة إنتاجها، وبفضل السلع التي غزت بها العالم، "أما النتيجة فكانت أن الحضارة الغربية أصبحت نوعا من النموذج الذي تسعى بقية العالم إلى تنظيم نفسها على مثاله"٩. لقد كان من نتائج الزيادة الرهيبة في الانتاج لدى الحضارة الغربية أن أصبح البحث عن الأسواق الجديدة أمرا ملحا، والبحث عن المصادر الجديدة للمواد الأولية أكثر إلحاحا، حيث انطلق الإنسان الأوربي– الغربي المغامر بكل شراهة باحثا عن كل ما يقوي إنتاجه، وقد احتاج في هذه المرحلة إلى تبرير نهبه المنظم لثروات غيره، فأحيانا يزعم أنه إنما جاء إلى تلك البلدان التي لم تعرف تحولات اقتصادية كبرى بزعم نشر الحضارة، وأحيانا بزعم نشر الدين المسيحي، فكان يعطي الإنجيل ليأخذ الذهب، حتى إذا استنفذت هذه أغراضها اختلق مقولة العرق الأسمى، الذي اختارته الأقدار لنشر قيم الحضارة.

٧– هارالد موللر، تعايش الثقافات ومشروع مضاد لهنتنغتون، ترجمة: إبراهيم أبو هشهش، دار الكتاب الجديدة المتحدة، فرنكفورت: ٢٠٠٥، ص ٥٣

٨- المرجع نفسه ص ٣٧.

٩- المرجع نفسه، ص٤٢.

بناء على هذه الصورة التقريبية الموجزة يمكن القول إلى حد كبير أن مفهوم الحضارة بهذا المعنى أوربي المنشأ، وأن هذا المفهوم تم تحديده في سياق ثقافي غربي، واشتركت في رسم معالمه مجمل التحولات التي مرت بها المجتمعات الأوربية– الغربية واتخذ لاحقا ذريعة لتصنيف الشعوب إلى متحضر وغير متحضر، فما كان آخذا بأسبابها فهو متحضر، وأما من لم يأخذ بها فلا.

قد يكون في وسعنا الآن أن نقول بأن الثقافة الإسلامية لم توظف كلمة الحضارة بهذا المعنى الذي عرف لاحقا في الثقافة الأوربية، وأن مجمل المدلولات التي حملها لفظ الحضارة في الثقافة الإسلامية لا يخرج عما ذكره ابن خلدون الذي أوردناه سلفا، وعلى أي، وسواء كان التفاوت بين المدلولين راجعا إلى الترجمة أم لا، فإن الذي يعنينا في هذا المقام هو ما إذا كان المدلول الذي ورد في كلمة" Civilisation" موجودا في الثقافة الإسلامية، وفي غيرها من الثقافات أم لا؟

ليس يعني اقتصار معنى "الحضارة" في الثقافة الإسلامية على ما ذكره ابن خلدون أن هذه الثقافة تخلو من كل ما له صلة بالسعي لزيادة الإنتاج وغيرها من اللوازم، فهذا المعنى في حقيقة أمره متضمن في القرآن الكريم في مفهوم عمارة الأرض، قال الله تعالى:" وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ"(هود، الآية ٦٠) وقوله: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا"(الروم، الآية٩)،وهذه الآيات القرآنية وما في معناها هي التي جعلت ابن خلدون فيما بعد يسمي علمه علم العمران، وهو ما يجعل هذا المفهوم أشمل من مفهوم الحضارة عنده، على اعتبار أن الحضارة مرحلة أخيرة من مراحل العمران، يصير إليها الإنسان عندما تضعف همته في الإبداع، ويصبح همه الإقبال على التأنق والتفنن في سائر وجوه الحياة، مع ما يترتب عليه من فساد في الأخلاق وتحلل من القيم، ما يؤدي في النهاية إلى زوال العمران.

والذي يعنينا في هذا المقام أن كل شعب من الشعوب له مفهومه الخاص للحضارة، لكن الثابت أنها جميعا ساهمت في بناء صرح الإنسانية بنصيب، أما قصر معنى الحضارة على ما تقدمه للإنسان من أشياء، ويتم تصنيف الشعوب على أساس ما حصلته منها فهذا من قبيل التحكم، وحتى في هذا المقام فإنه لا أحد ينكر أن كثيرا من الشعوب التي عرفها التاريخ كان لها حظ في توفير أسباب الحياة للإنسان بحسب ما تيسر لها.

المطلب الثاني: الغرب؛ مفهومه وتاريخه

لا يكاد يخلو حديث الدارسين والمشتغلين بحقل المعرفة الحديثة خصوصا من مصطلح الغرب، سواء من جهة الحديث عن ثقافته وعلومه، أو من جهة سياسته وسطوته، ولا تكاد تخلو أي محاورة تتناول مسائل العصر منه، حيث إنه أصبح حاضرا بقوة على كل المستويات، والناظر في حجم الكتب والدراسات التي صدرت تحت هذا العنوان يجدها تفوق الحصر[١٠]، سواء في الغرب نفسه أو باقي أنحاء العالم الأخرى ، وخصوصا في العالم الإسلامي بحكم طبيعة العلاقات التاريخية التي سادت بين الجانبين، وقد زاد التركيز على توظيف مصطلح "الغرب" والمفاهيم المرتبطة به خصوصا في العقود الأخيرة، حيث لم تعد تذكر قيم الحق والعدل والعناية بحقوق الإنسان والدفاع عن حريته إلا باعتبارها قيما وليدة الكفاح الذي خاضه الإنسان الغربي لعدة عقود متطاولة في وجه كل صور الاستيلاب والعبودية، بل إن الغرب نفسه جعل من مهمته نشر هذه القيم وتعميمها بوصفها الصورة المثلى للحياة التي كان ينشدها الإنسان على مدى قرون متطاولة، وليس من شك في أن أي حوار بين الحضارات والثقافات لابد أن تكون هذه القيم في صميمه، وليس من شك أيضا أن تكون هذه القيم متبناه بصورة مطلقة من قبل الغرب، في سياق هذا المعطيات نرى من المناسب محاولة الاقتراب أكثر من هذا المفهوم بقصد تحليله وفك جملة التراكمات التي أحاطت به ورفعته إلى مستوى الصنم، وهذا العمل نحسب انه يرتبط بصورة مباشرة بأي مسعى لإدارة الحوار معه من أي جهة كانت، فكيف تشكل هذه المفهوم عبر التاريخ والجغرافيا؟

لا يحتل البحث عن تطور مفهوم " الغرب" مكانة ذات بال عند فلاسفة الغرب المعاصرين في الجملة، ذلك أنهم اعتادوا على استخدامه بصورة توحي بأنه معطى مسلما به، هذا ما يوحي به كلام "ريتشارد تارناس" في مفتتح كتابه آلام العقل الغربي حين يقول: "يقدم هذا الكتاب سيرة موجزة لتاريخ نظرة الغرب إلى العالم، من صيغتها الإغريقية القديمة إلى صيغة ما بعد الحداثة"[١١]، وهنا يظهر أن "تارناس" يوظف" الغرب" بوصفه معطى لا يحتاج إلى فحص محددا بذلك البدايات الأولى لتشكله، حيث يعود به إلى اليونان القديمة، والأمر نفسه نجده عند

[١٠]- نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: أزوالد شبنغلر، تدهور الغرب. ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي. برتراند رسل، حكمة الغرب. باكونن، موت الغرب.ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب. وغيرها كثير.

كما صدرت كتب ودراسات في العالم العربي توظف هذا المفهوم منها: منى أبو الفضل، أميمة عبود وسليمان الخطيب، الحوار مع الغرب. دار الفكر، دمشق ٢٠٠٨.

[١١]- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي؛ فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم. ترجمة فاضل جتكر. العبيكان، كلمة ، ط١ ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، ص١٧.

ريتشارد كوك وكريس سميث، حين يذهبان إلى أن الغرب وصل في ٢٣٠ سنة الأخيرة إلى الاقتراب اقترابا قطعيا إلى شكل جديد على نحو كامل من الخبرة الإنسانية، خبرة موسومة بالمثل العليا العالية جدا، ومن جملتها داخل تلك الحضارة المشتركة، القضاء على الفقر وتخفيف المعاناة ومد حقوق الإنسان إلى كل واحد...وهذه الطموحات تطورت على مدى ٢٥٠٠ عام، وكان روادها قادة بارزين١٢.

هكذا يتم توظيف هذا المفهوم بربطه بجملة من الأفكار نمت وتطورت في اليونان القديمة، واستمرت في التطور مع دخول عناصر جديدة خصوصا اليهودية والمسيحية، مرورا بالحضارة الرومانية، إلى أن وصلت إلى العصر الحديث، والحقيقة أن هذا الاختزال يحتاج إلى فحص وتحليل، ذلك أن التعرف على بنية الغرب التي تشكلت عبر تاريخ طويل من شأنه أن يبين لنا إلى أي مدى يمكن أن يقبل الغرب حوارا للحضارات، وإلى أي مدى يمكن أن ينخرط في عالمية حقيقية، بدل المناداة بعولمة قيمه التي يراها معبرة عن آمال الإنسان وتطلعاته، وجعل الإنسان الغربي مقياسا في هذا الأمر. ربما يكون من المناسب في هذا المقام تناول مسألة مهمة وهي "المركزية الأوربية – الغربية" ونحسب أنها تقربنا من إدراك ما نحن بصدده على وجه يناسب المقام، فما المقصود بالمركزية الأوربية– الغربية، وهل لها تأثير في مسألة حوار الحضارات؟

المبحث الثاني:" المركزية الغربية" أو الغرب في مرآة نفسه.

لم يعد طرح السؤال المتعلق بالتفرقة بين الغرب وغيره ينطوي على شيء من الاهتمام، ذلك أن كثيرا من كتاب الغرب وفلاسفته لم تعد هذه التفرقة تستهويهم، فالغرب في نظرهم بالمعنى التقليدي لم يعد له معنى، بل إنه أصبح من التاريخ، فالغرب بالنسبة لهؤلاء يمثل الحداثة والليبرالية، والديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها من المفاهيم، وأينما وجدت هذه المفاهيم كان ذلك امتدادا للغرب، وما دامت هذه المفاهيم تلقى الترحيب من قبل كل شعوب العالم، فذلك يشير إلى امتداد الغرب وشموله للعالم أجمع.

تنضح كتابات الفلاسفة الغربيين بشيء غير قليل من الإشادة بمنجزات الغرب، وأغلب من ساروا في هذه الوجهة يرون أن ما قدمته الحضارة الغربية اليوم للإنسانية لم تسهم به أي حضارة سابقة عليها، ثم إن اندراج سائر الحضارات الأخرى وانخراطها في حركة العلم الحديث والديمقراطية والليبرالية وقضايا حقوق الإنسان، كل هذا يشير إلى تعميم النموذج الغربي

١٢- ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب. ترجمة: محمد محمود التوبة، العبيكان، كلمة ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م ، ص٢٠٥، ٢٠٦

للحياة، بوصفه النموذج الأمثل الذي يعبر عن طموحات الإنسان، تلك التي لا يمكن تحقيقها خارجه، فالحضارة الغربية من هذا المنظور تمثل قيم الإنسان، وهذا ليس جديدا عليها، فاليونان الذين هم أسلاف الغربيين حاليا كانوا قد أهدوا للبشرية جميها صورة رائعة من الحضارة لم يكن يتيسر لغيرهم أن ينجزوها، والرومان لم يكونوا مختلفين عن اليونان، فقد قدموا صورا من النظام والتزام القانون وإعلاء شأن الإنسان والدفاع عن حريته بصورة لم نعرف لها مثيلا في ذلك الحين عند غيرهم، الغرب يرى نفسه إذن أنه مصدر الحضارة والتنوير منذ زمن طويل، فكما أهدى أسلافه صورا رائعة من الحضارة مثل الإنسان بيت القصيد فيها، فكذلك هو الآن يقوم بنفس المهمة، فهو يعلم سائر الشعوب كيف تنظم نفسها، وكيف تتجاوز أسباب التقاتل فيما بينها، وفوق ذلك أهداها شيئا آخر أكثر أهمية من كل هذا، فقد قدم الغرب العلم للإنسانية كلها بصورة لا تقبل النقاش، وفوق ذلك فهو في المجال الاقتصادي لا ينقطع عن تقديم المساعدات، وهو يجتهد في نزع السلاح من أيدي المتخلفين لأنهم لا يحسنون استخدامه، وتلك مهمة لا يمكن الاستهانة بها.

هذه باختصار هي صورة الإنسان الغربي كما يراها هو، وهي صورة تشكلت نواتها الأولى منذ أمد بعيد، صورة ذات أبعاد فلسفية وامتدادات عرقية وتاريخية، تختزل مسار الحضارة في الإنسان الغربي ومحيطه، وتنفي وجود ثقافة مهما كانت طبيعتها يمكن أن تنافس الثقافة الغربية، أو أن تكون ندا لها، فإلى أي مدى يمكن السير مع هذا الطرح القائم على نفي أي ثقافة فاعلة في حياة الإنسان غير ثقافة الغرب؟ وهل في الإمكان الحديث عن التعددية الثقافية في عالم اليوم على الوجه الذي يلغي الاحتكار ويمكن للتعاون بين بني البشر جميعا؟.

من الواضح أن الإجابة عن هذين السؤالين تحتاج أول ما تحتاج إليه إعادة النظر بشكل صريح برؤية نقدية في المقولات التي تستند عليها واحدة من أعقد الأفكار التي تسكن عقلية الإنسان الغربي، ونقصد بها فكرة التمركز حول الذات، أو فكرة المركزية الغربية وذلك بتتبع تشكلاتها التاريخية و محاولة بيان أسسها الفلسفية بشيء من الاختصار وبحسب ما يتطلبه المقام، لأن ذلك في تقديرنا يمكنه أن يساهم في إيضاح المسارات التي يمكن أن تأخذها محاولات التقارب بين الغرب وغيره، فضلا عن كونها تؤسس لفهم سليم يمكنه المساهمة في إحداث التقارب المنشود.

ويمكن حصر وبيان المفاهيم المؤسسة للمركزية الغربية[١٣] في المطالب الآتية:

[١٣]- حدد هنتجنجتون السمات الفارقة التي تميز الغرب عن غيره في الآتي:

١- التراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان.

٢- المسيحية الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية، مستبعدا منها الأرثوذوكسية.

المطلب الأول: الانتساب لليونان والرومان، أو وهم التاريخ

ليس الغرض من مناقشة دعوى الانتساب إلى اليونان والرومان من قبل الغرب المعاصر نفي هذه الصلة التاريخية بالمطلق، فهذا لا يستقيم، مع أنه في الوقت نفسه نجد صعوبة بالغة في العثور على صلة صريحة بين هؤلاء وأولئك. إن الغرض من هذا هو بيان كيف أن الغرب المعاصر، بل وحتى في نواته الأولى، ونقصد بذلك أوربا ما انفك يعمل على وصل نفسه تاريخيا بقدماء اليونان والرومان، وهذا بداية من عصر النهضة، وقد يبدو هذا أمرا بريئا، لكن هذه البراءة تزول إذا عرفنا أن الغرب أعاد بناء تاريخ اليونان العقلي والسياسي والأخلاقي بناء جديدا، بحيث يجعل منه الهادي الأوحد له في هذه المجالات، وفوق ذلك جعل الثقافة اليونانية أرقى من سائر الثقافات التي عاصرتها أو جاءت قبلها، لقد تم الترويج إلى الفكرة التي مفادها أن التفكير الفلسفي اليوناني هو مفتتح التفكير الإنساني المنظم، وأن الفلسفة الطبيعية التي عرفت عند اليونان مثلت أول تمرد على السحر واللاعقل، وأنها أول صورة من صور التفكير شبه العلماني١٤ المبكر، وأن ما وصل إليه اليونان في مضمار التفكير الرياضي لم يعرف له شكل عند سائر الشعوب التي عاصرتهم، لقد عرف التاريخ القديم " وجود معارف وملاحظات على مستوى كبير جدا من المهارة، لا سيما في الهند والصين وبلاد بابل ومصر، غير أن ما كان يعوز الفلك في بابل وخارجها – كان علم النجوم في بابل مدهشا جدا– هو الأسس الرياضية التي أمكن لليونانيين وحدهم توفيرها له. في الهند لم تكن الهندسة تعرف البرهنة العقلانية التي أنتجتها هي أيضا، العقلية اليونانية، مثلما أنتجت الفيزياء والميكانيكا، أما العلوم الطبيعية في الهند، الغنية جدا بالمشاهدات، فهي بدورها تجهل المنهج التجريبي، الذي هو – باستثناء محاولات قليلة جدا في الماضي البعيد– نتاج عصر النهضة الأوربي"١٥، والشأن نفسه ينسحب على مجال التفكير السياسي والأخلاقي، وحتى على مجال الآداب

٣- اللغات الأوربية.

٤- الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية.

٥- حكم القانون.

٦- التعددية الاجتماعية والمجتمع المدني.

٧- الهيئات التمثيلية.

٨- النزعة الفردية.

وهذه السمات حسب رأيه لا ينفرد بها الغرب وحده دون سائر الحضارات، لكن اتحادها معا في توليفة أو مركب هو الذي أتاح للغرب تفرده بها. صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة : طلعت الشايب، ط٢، ١٩٩٩م ، ص١١.

[١٤]- مغامرة الفكر الأوربي، قصة الأفكار الغربية. ترجمة: أمل ديبو. ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة٢٠١١، ص٤٥

[١٥]-ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، ص٥

والفنون، " فربما كانت شعوب أخرى تتمتع بحس موسيقي لم يتوفر لنا مثيله. كما عرف في العالم على نطاق واسع مقطوعات موسيقية عديدة... وتوصل آخرون إلى حساب الفواصل الموسيقية العقلانية التي وضعناها. غير أن الموسيقى المتكاملة عقلانيا الموقعة على هارمونية متجانسة، وائتلاف الأصوات، والتنويعات النغمية القائمة على هارمونية عقلانية ...كل ذلك لا يوجد إلا في الغرب"١٦، وهذا ينسحب على سائر العلوم والفنون بلا استثناء.

وكما أضفيت هذه الهالة على الفكر اليوناني أضفيت هالة مشابهة على الحضارة الرومانية، تلك الحضارة التي عرفت العالم القديم بالقانون، وبالنظام الجمهوري في مضمار السياسة، وما إلى ذلك.

لقد أصبح من المعلوم أن اليونان سبق لهم وتعلموا من سائر الشعوب الشرقية، وليس من المناسب مسايرتهم في عدم اعترافهم بفضل الشعوب الشرقية عليهم– وإن كنا نرى أن اليونان لم يفعلوا ذلك–، بل إن اليونان أنفسهم اعترفوا للمصريين ببراعتهم، وتحدثوا عنهم بالتقدير والتبجيل، وقد كانوا منسجمين مع أنفسهم ومع حقائق التاريخ، حين اعترفوا للسابق بفضله عليهم.

ترتب على هذه الرؤية التاريخية المشوهة التي ترجع الفضل كل الفضل لقدماء اليونان، وتعتمد إقصاء سائر الشعوب من ساحة الفعل التاريخي إلى اعتبار– حسب ماكس فيبر– " الغرب مكانا وحيدا لوجود علم نعترف اليوم بقيمة تطوره"١٧، بهذه الصورة أعاد الغرب بناء التاريخ بما يجعل أوربا– الغرب هو المركز، ويعيد اكتشاف نفسه من جديد، بعد قرون من السكون، ويدرك أنه ينتمي إلى الثقافة اليونانية والرومانية، ثقافة العقل والإبداع وينفي تبعا لذلك عن سائر الشعوب أي مساهمة في الحضارة الإنسانية، من الصينيين إلى الهنود إلى بلاد الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، والشيء نفسه نجده عند "هوسرل" في تمجيده للفلسفة الغربية حين قال: أن "أوربة كل البشرية هو مصير الأرض، وأن الفلسفة الغربية تعبير روحي متميز يمكن أن يشمل فكر الصين والهند، ولكن لا يمكن لهذين الفكرين أن يشملاه"١٨.

١٦- المرجع نفسه، ص ٥.

١٧- المرجع نفسه ، ص٥

18 -E.husserl, the crisis of European sciences and transcendentale phenomenologie, Evanston : northwestern university press, 1970 p: 273-275 نقلا عن: المبروك المنصوري، الدين والحداثة والقيم، دراسة في الفكر الديني الياباني والفلسفي الشرقي. ط١، الدار المتوسطية للنشر، تونس: ٢٠١٧/ ١٤٣٨، ص ١٠٤.

المطلب الثاني: المسيحية، أو وهم الدين الأسمى

تحولت المسيحية على يد الغرب المعاصر إلى فكرة بالغة الأهمية قادت أوربا والغرب إلى رحاب العقل، وجعلته أكثر تقبلا للدخول في مضمار الإبداع من أوسع أبوابه، وهذا عندما قدمت للإنسانية إلها في غاية الحنو والمحبة لأتباعه، صارت الكنيسة رديفة للتفكير العقلي، على خلاف سائر الأديان الأخرى، "وبالنسبة لمعظم الأديان غير المسيحية فليس هناك خالق عقلاني، والكون ومتقلب دون نزوات، ولا يمكن التنبؤ به...والإسلام آمن بإله واحد، ولكن الله كان يعتقد أنه فعال وهو أحيانا إله متقلب، يفعل ما يشاء، يقيم العالم يوميا من خلال إرادته، ولم يكن يوجد أي مماثل مواز للمعنى الأوربي للقانون الطبيعي الراسخ من الخالق رسوخا ثابتا"١٩. وما أبعد هذا عن روح القرآن، الذي شدد على السنن وعلى أهمية الانسجام معها ومراعاتها، فهي لا تحابي أحدا.

لقد ساد الاعتقاد بأن "رؤية المسيحية لله كانت شرطا لإقلاع العلم الحديث، وانطلاقته، ومع ذلك فإن اللاهوت المسيحي– الذي كان موجودا في كل الأساسيات طوال أكثر من ١٠٠٠ عام قبل إقلاع العلم– ليس تفسيرا كافيا كما هو واضح، وثمة عاملان اثنان آخران كانا جوهريين: التقدم الفكري الذي أدى إلى رؤية جديدة للإنسانية، والنمو الاقتصادي، الذي اعتمد بدوره اعتمادا مهما على التقدم نحو الحرية"٢٠

تحولت المسيحية– تحديدا البروتستانتية منها– خصوصا في القرن التاسع عشر على يد لفيف من الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى حاضنة للعلمانية وإلى راعية للرأسمالية، فـ" الرأسمالية لم تشهد إلا في الغرب انتشارها الكبير وأنماطها وأشكالها وميولها، التي لم تبرز في أي مكان آخر"٢١، غير أن الغرب في الأزمنة الحديثة شهد وحده شكلا من الرأسمالية هو التنظيم العقلاني الرأسمالي للعمل الحر (شكليا)، وهو ما لا نجده في أماكن أخرى إلا على شكل بدايات مشوشة" ٢٢، هذا التنظيم الرأسمالي ساهم في ظهوره بصورة مباشرة وفاعلة الانتماءُ الديني المذهبي إلى البروتستانتية، يتحدث ماكس فيبر بشيء من التفصيل عن تلك المفارقة التي أدركها، وذلك التفاوت الذي لاحظه بين عناية الطوائف الدينية بصنف دون آخر من العلوم، يقول:" إذا عدنا إلى الإحصائيات المهنية في بلد تتعايش فيه طوائف دينية متعددة، نلحظ بصورة متواترة، واقعا أثار في العديد من المرات، نقاشات حادة في الصحف والكتابات

[١٩]– ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب، ص ١٢٨، ١٢٩.

[٢٠]- المرجع نفسه ص ١٣٠.

[٢١]- ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص٨.

[٢٢]- المرجع نفسه، ص ٩.

الأدبية، والمؤتمرات الكاثوليكية في ألمانيا. يتلخص هذا الواقع في أن رجال الأعمال وأصحاب الحيازات الرأسمالية وكذلك ممثلي الشرائح العليا المصنفة من اليد العاملة، وفوق ذلك الملاك التقني والتجاري ذا الثقافة الرفيعة في المؤسسات الحديثة، هم بأغلبية كثيرة من الطائفة البروتستانتية"٢٣. ويدعم فيبر رأيه هذا بجملة من الإحصائيات استعان بها في إجراء بعض المقارنات بين ميول الطلاب لدى الطوائف المختلفة ليتوصل إلى أن الطلاب من الطائفة البروتستانتية أكثر ميلا إلى الدراسات التقنية من غيرهم، خصوصا الكاثوليك الذين كانت ميولهم إلى دراسة الآداب القديمة أكبر ٢٤، وهكذا يجعل "فيبر" تطور الرأسمالية مرده إلى المسيحية البروتستانتية، بحكم تحررها المبكر الذي دشنته حركة الإصلاح الديني مع "لوثر".

بهذه الصورة استعاد الأوربيون مجدهم وتاريخهم الذي حاولت المسيحية الكاثوليكية بطمسه على مدى قرون طويلة، وقد كانت هذه القرون كافية لأن تخضع المسيحية خضوعا تاما للعقلانية اليونانية فحصلوا بذلك على مسيحية أكثر تحررا بفضل استلهام التراث اليوناني– الروماني، الذي منحهم مسيحية علمانية كانت البروتستانتية الوجه الأكثر تعبيرا عن هذا التوجه.

والحقيقة أن هذه واحدة من المفارقات الغريبة أن تصبح المسيحية التي دخلت في صراع مرير مع العلماء داعية للعقل وإلى احترام العلم والعلماء. إن تفسير هذه المفارقة الغريبة في تقديرنا يجد أساسه في تلك النزعة التي ظهرت في عصر النهضة، بل وتعود إلى ما قبل ذلك بكثير، ونقصد بها نزعة تمجيد التراث الهللينى، وذلك بالعودة إليه واستلهام روحه، في سائر العلوم والفنون والآداب، وكأن الأوربي يكتشف نفسه في ذلك التراث، في هذه الفترة لم يكتف الأوربي بمهمة الاستلهام فقط، بل راح يعيد بناء التاريخ بناء جديدا مبنيا على تمجيد هذا التراث الهللينى، بعد أن عرفه عن طريق العرب والمسلمين بعامة، جاعلا من " أوربا "هي كل شيء في هذا العالم، والمسلمون لم يكن لهم دور سوى حفظ ذلك التراث، إذ لم يكن في وسعهم الإضافة عليه. كانت المهمة الوظيفية من استعادة التراث الهللينى هي إعادة تقويم المسيحية في نطاقه، بحيث تنقل هذه المسيحية إلى نطاق العقل اليوناني الأوربي الغربي، وقد كان الجهد الذي قام به توما الإكويني عظيما، بالتوازي مع ذلك كان من اللازم النظر إلى سائر الأديان نظرة دونية، إذ أن كل الشعوب التي لم تكن مسيحية من هذا المنظور ليست مؤهلة لأن

[٢٣] - ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ص١٦.

[٢٤] - المرجع نفسه، ص ١٧.

تنخرط في مضمار الحضارة، وذلك لأن المسيحية هي التي صنعت المعجزة الأوربية، وليس هناك مجال لتكرار مثل هذه المعجزة خارج المجتمعات المسيحية.

إن هذا التصور الذي أشيع عن المسيحية ويتم الدفاع عنه بقوة شبيه بذلك الاندفاع الصليبي المشؤوم، القائم على تمجيد المسيحية وتمجيد الحرب الصليبية التي قال فيها "روبير الراهب٢٥" متسائلا بنبرة بلاغية:" ولكن فيما عدا معجزة الصليب الشافي، ما هي المأثرة الأكثر إعجازا منذ خلق العالم مما حدث في الأزمنة الحديثة في هذه الرحلة التي قام بها رجالنا إلى أوشليم"٢٦ كان الصليبيون ينظرون إلى المسلمين على أنهم قطعان ضالة من الوثنيين، و كانوا يدعونهم " الساراسان"٢٧، " وقد جرى تصوير الحملة الصليبية الثانية على أنها حركة من جانب كل الجنس البشري ضد الساراسان"٢٨، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون أثناء استعدادهم للحملة الصليبية الثانية يرون أن الرب قد احتفظ لنفسه بتسوية الحساب مع اليهود، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالساراسان فإن "برنار" الذي عارض الدعوة إلى العنف ضد اليهود، لم يدع مجالا للشك في أن الحساب الإلهي يجب أن يسويه شعب الرب بنفسه٢٩.

لقد كان الاعتداد بالمسيحية على أشده في القرون الوسطى خصوصا زمن الحروب الصليبية والقرون التي تلتها، وكانت الحروب التي تشن ضد الكفار والوثنيين بلا مبرر تلقى الترحاب من كل المسيحيين.

إن هذا التمجيد للمسيحية بالرغم من الفظائع التي ارتكبت باسمها ليس يرجع في تقديرنا لما تشتمل عليه من قيم، بل إن ذلك يرجع من بين ما يرجع إليه، كونها تحيي في الإنسان الأوربي – الغربي شيئا من الشعور بالتميز عن غيره، وبما يجعله يحوز المبرر لشن الحروب على باقي الشعوب الأخرى. إن هذا التمجيد للمسيحية الذي ارتبط بالرأسمالية، يشير إلى حالة التناغم بينهما، هذا التناغم الذي أفضى إلى بروز حركة عنيفة تجاه الشعوب الأخرى عبرت عن نفسها في صورة هي أشد قبحا مما يعتقد، ونقصد بهذا حركة الاستعمار، ولعل ما يزيده

---

[٢٥] - عاش في فترة الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥م، حضر مؤتمر كليرمون الذي دعا إليه البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م الذي على إثره بدأت الحرب الصليبية. انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية. سلسلة عالم المعرفة، العدد١٤٩، هامش ص ٤٢

[٢٦] - توماس ماستناك، السلام الصليبي. ترجمة بشير السباعي، ط٢، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٩٥.

[٢٧] – الساراسان: كان لقبا يطلق على العرب، وقد كان من أهدافه زيادة على التشويه؛ محاولة تغييب العرب والمسلمين عن التاريخ، وذلك بالعمل على إخماد ذكرهم، للمزيد راجع : السلام الصليبي ص ١٤٨.

[٢٨] – المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

[٢٩] – المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

قبحا هو التبرير الديني الذي أعطي لها، لقد سار الجندي والقسيس جنبا إلى جنب من أجل تحقيق مآرب أوربا، سعى الرأسمالي الباحث عن الثروة وعن المواد الأولية لمصانعه إلى الاستيلاء على ثروات غيره، وهو في هذا يزعم نشره لحضارة الرجل الأبيض، ومشى القسيس متذللا وهو يحمل الإنجيل بين يديه، يعطي الإنسان الذي غلبه الجندي إنجيلا باليد اليسرى، ويسلبه دينه وثقافته ومعها كرامته باليد اليمنى. والذي يبدو ظاهرا أن المسيحية لم تكن في يوم من الأيام مستقلة عن طموح الإنسان الغربي في الغلبة والسيطرة على الآخر، والظاهر أنه ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تتغلب فيه الرأسمالية بوصفها المعبر عن تغول الإنسان الغربي على ما بقي من المسيحية.

إن انحسار المسيحية التدريجي يبدو في الهجوم العنيف اللافت للنظر الذي تعرضت وتتعرض له المسيحية في قلب المجتمعات المسيحية نفسها، وقد عرفنا حدة تلك الدعوات التي تنادي بالخلاص منها ومن شرورها. لعل أقوى الشواهد القريبة على هذا الهجوم على المسيحية ما وجهه إليها "نيتشه"، حين اعتبرها دين الضعفاء، " لقد انحازت المسيحية إلى كل ضعيف ومنحط وفاشل، وشكلت من مناهضتها لغرائز التشبث بالحياة المفعمة مثالا، مُفسدة ومُسيئة من خلال ذلك إلى صميم الطبائع النفسية الأكثر قوة، عبر تعليمها لاعتبار القيم العليا المندفعة للنفس خطيئة وضلالات وغوايات. المثال الأكثر إيلاما هو هذا: مثال ضياع باسكال الذي اعتقد أن عقله مُفسد بسبب الخطيئة الأصلية، بينما في الحقيقة كان مُفسدا من المسيحية"[٣٠].

فالمسيحية يبدو أنها لم تعد تحظى بالاحترام، أما تلك الصورة المثالية التي تروج فيبدو أنها في قسم كبير منها تروج للأوهام، ذلك أن التعليم المسيحي نفسه لم يعد يحتل إلا حيزا ضيقا جدا، وهو ما يدل على أن الحديث عن المسيحية بهذه الصورة لا يتجاوز حدود الإيديولوجيا، اللهم إلا إذا كان المعنى المقصود أن الغرب قام بـ "غربنة" المسيحية وجعلها خاضعة لمنظومته المفاهيمية التي قام بتشكيلها من جديد، إن أصدق تعبير عن الوضعية التي آلت إليها المسيحية هي حالة التشرذم التي تعرفها الكنائس المسيحية[٣١]، هذه الحالة التي أثرت سلبا على اللاهوت المسيحي برمته، وتوشك أن تعصف به. لقد شهدت أوربا والغرب عموما إلى جوار هذا أشد التوجهات الفلسفية تطرفا في معاداة الدين، خصوصا منذ القرن السابع عشر، كما شهدت من التيارات الإلحادية ما لم تشهده أي بقعة أخرى في العالم، فمن فيورباخ إلى

[٣٠]– فريدريك نيتشه، عدو المسيح. ترجمة:جورج ميخائيل ديب،ط٢، ص٢٨.

[٣١]- عبد الإله بلقزيز، نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠١٧، ص ٢٣١.

نيتشه، إلى ماركس ومن على طريقته من الشيوعيين، إلى فلاسفة الوجودية الملحدة، وصولا إلى حركة الإلحاد الجديد ممثلة خصوصا في الفرسن الأربعة، إن هذا ليس تعبيرا عن حيوية الفكر الغربي ولا هو تعبير عن تسامح الكنيسة، إنه تعبير عن فراغ روحي وانحدار أخلاقي، لم تستطع الكنيسة الوقوف في وجهه، بل إنها زكته في كثير من الأحيان، وهو ما جعلها غير جديرة بالاحترام.

المطلب الثالث: العرق، أو وهم الجنس الأرقى

يمكن اعتبار مسألة العرق واحدة من أهم الأفكار التي وجدت تربة خصبة في أوربا والغرب منذ القرن السابع عشر[٣٢]، وهي فكرة ليست منفصلة عن دعوى التفوق اليوناني الروماني سعى الإنسان الأوربي– الغربي إلى ربط تاريخه به، كما لا تنفصل عن ادعاء أفضلية المسيحية.

وهذه الفكرة– فكرة العرق الأسمى– تنطلق من فرضية تفرد الجنس الأوربي وتميزه عن غيره من الأجناس، وتعتبره جنسا أسمى وأرقى بفضل الخصائص التي يتميز بها، وتفترض نظرية الجنس بأن ""التاريخ الطبيعي للإنسان كنوع بيولوجي هو الذي أنتج أيضا التاريخ الثقافي للبشرية ككائنات اجتماعية أخلاقية. وبدا التقسيم طبقا للجنس كأنه يكشف أسرار وغموض عملية التحضر بتفسير أسباب مضي بعض المجتمعات في مسيرة التقدم بشكل أسهل وأسرع من غيرها"[٣٣]

وهذه الفكرة ليست جديدة على الثقافة الغربية، فقد كانت موجودة عند اليونان والرومان قديما، "فاليونان– وكذلك الرومان– عرفوا أن البعض أحرار، وهذا البعض هو المواطن اليوناني أو الروماني، أما المواطنون في الأمم الأخرى فقد كانوا ينظرون إليهم على أنهم "برابرة" و"همج"، ولهذا اتخذوا من أسرى الحروب عبيدا وأرقاء، لهذا فإننا نجد عمالقة الفكر الفلسفي عند اليونان– أفلاطون وأرسطو– يقرون وجود نظام الرق لأنهم لم يعرفوا أن الإنسان بما هو إنسان حر"[٣٤]

---

[٣٢]- لا يسع المقام لإيراد نصوص لكبار فلاسفة أوربا وكتابها، مثل هيوم، فولتير، كوندورسيه، كانط، هيغل، جون ستوارت ميل، هوسرل، فيكتور هيغو، والقائمة تطول، وكلها نصوص تنضح بالعنصرية. وقد وقع اختيارنا على نصوص لهيغل.

[٣٣]- آرثر هرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، ترجمة: طلعت الشايب، ط٢، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٩٤.

[٣٤]- هيغل، العقل في التاريخ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ط٣، دار التنوير، بيروت ٢٠٠٧م، ص ٤٩. يروي المؤرخون أن عدد العبيد في أثينا وحدها من المجموع الكلي للسكان البالغ عددهم٤٠٠٠٠، وكان عدد هؤلاء العبيد ٢٥٠٠٠، أي أكثر من نصف عدد سكان المدينة، ولقد كان هؤلاء العبيد مجردين من كافة حقوقهم السياسية. نفس المرجع، هامش ص ٤٩.

وفكرة تفوق العنصر الأوربي– الغربي، وعلى الرغم من كونها فكرة مشوشة، ولا يمكن التحقق منها أصلا من الناحية الإثنوغرافية، وجدت من ينظر لها في العصر الحديث، ويلتمس لها الأدلة، سار على هذه الفكرة "فولتير" ومعه "كوندورسييه"[٣٥] من فلاسفة التنوير، وأقرب النماذج إلينا الفيلسوف الألماني "هيغل"[٣٦].

ليس من غرضنا استعراض البناء الفلسفي الذي شيده هيغل، إنما سنكتفي بما يعنينا فيما له صلة بالمركزية الأوربية. يبين إمام عبد الفتاح إمام في مقدمته لكتاب "العقل في التاريخ" لهيغل أن هذا الأخير في تصنيفه لمعطيات التاريخ، "يرمز لمجرى التاريخ بمسار الضوء، فكما أن الشرق تشرق من الشرق، وتغرب في الغرب، فإن آسيا هي بداية التاريخ وأوربا هي نهايته، ذلك لأن تاريخ العالم ليس إلا ترويض الطبيعة على الخضوع للنظام، وجعلها تطيع المبدأ العام"[٣٧]. في رؤيته للتاريخ يرى أن الشرق هو "المرحلة الأولى" في تاريخ الحضارة العام، حضارة الصين والهند والشرق الأوسط، هي التي تشكل "طفولة التاريخ"، فهم الذين كشفوا عن سر الطبيعة العقلانية للكون، واخترعوا فكرة الدولة. الإغريق الذين نعتبرهم مرحلة "المراهقة" اخترعوا مفهوم الفرد الحر، وكما شرح هيغل: بزغ الوعي بالحرية أولا بين الإغريق، وهكذا كانوا أحرارا، ولكنهم، والرومان كذلك، كانوا يعرفون أن البعض فقط كانوا هم الأحرار، وليس الإنسان بشكل عام، ولذلك كان يوجد عبيد عند الإغريق، أما الرومان فهم الذين فتحوا الباب لنضج الجنس البشري عندما شيد أولئك الأفراد الأحرار وعبيدهم إمبراطورية مادية وسياسية عظيمة، جاء "الجرمان" أو العالم الأوربي وهم يشبهون مرحلة الشيخوخة في حياة الإنسان، إلا أن الشيخوخة الطبيعية ضعف، أما شيخوخة الروح فهي قمة النضج والقوة، الحضارة الحديثة تمثل ذروة التقدم لأنها أوضحت أن البشر كلهم أحرار بطبيعتهم، وهكذا أعلن هيغل أن أوربا وبكل تأكيد هي نهاية التاريخ، مادام تاريخ العالم ليس سوى هذا النوع من التطور لفكرة الحرية[٣٨]. هكذا يجعل هيغل الجنس الأوربي، وبالأحرى "الجنس الجرماني" هو الجنس الذي ألقت به الأقدار في هذا العالم لأجل أن يهدي سائر الشعوب على طريق الحضارة، ولا شك أن

[٣٥] - المركيز دو كوندورسييه(١٧٤٣ - ١٧٩٤ م)أحد فلاسفة التنوير الكبار، يعد واحدا من كبار علماء الاجتماع، كان يدعو إلى أخوة إنسانية وحضارة كونية، وحقيقة أمره كان يدعو إلى ذلك في دائرة المركزية الأوربية. انظر: ميشيل إليار، الاجتماع والتربية، من كوندورسييه إلى دوركايم. ترجمة : يونس لشهب، مجلة نقد وتنوير، العدد الرابع، السنة الثانية، مارس ٢٠١٦، ص ٣٥٥ وما بعدها.

[٣٦] - هو جورج فيلهلم فريدريك هيغل (١٧٧٠- ١٨٣٠)، من مؤلفاته: محاضرات في تاريخ الفلسفة، أصول فلسفة الحق، محاضرات في فلسفة التاريخ.

[٣٧] - هيغل، العقل في التاريخ، ص ٥٧

[٣٨] - آرثر هرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي ص ٦٩

فكرة "هيغل"تلقاها "نيتشه"، وأخرجها في فكرة الإنسان الكامل النيتشوي(السوبرمان) لتلتحم الفكرتان في الفكر الفاشي النازي.

لم يكن الاستشراق بعيدا عن هذا الطرح، بل يمكن القول بأنه مثل ذراعا فكرية قوية[٣٩] استخدمت في الترويج لهذه الفكرة المعادية لسائر الشعوب، تلك التي ترى أن الشعوب الآرية أرقى جنس بشري، وذلك بفعل الخصائص العقلية التي تميزه عن غيره، هذه الخصائص هي ما يجعله مؤهلا لحمل مهمة تحضير باقي الشعوب الأخرى. لقد مثل الاستشراق أداة مهمة في أيدي المروجين لمثل هذه الأفكار العنصرية ووظفها في الحط من قيمة الشعوب الأخرى. قام الاستشراق بتوظيف كثير من المقولات التي كانت رائجة خصوصا في القرن التاسع عشر، ونعني بها الدراسات الأنثروبولوجية التي تحولت بتأثير من الأفكار الداروينية إلى "ناطق باسم الكولونيالية ومبرر لغاياتها التوسعية، تحت شعار حماية البلاد الأقل تطورا"[٤٠]، والترويج للفرضيات السياسية والإمبريالية القائلة بتفوق العرق الآري[٤١].

من هنا يمكن القول بأن الغرب لا يرى إلا نفسه، من خلال الرغبة الجامحة في السيطرة، يتجلى هذا حين قام بتقسيم العالم إلى مركز وأطراف، استنادا إلى خرافة "الغرب الأبدي "المضاد لـ" الشرق الأبدي"، وقد كان هذا ضروريا من أجل تأكيد غلبة عناصر التطور المستمر في "الغرب" وغلبة عناصر الثبات في "الشرق"[٤٢].

ومنه يمكننا أن نتساءل عن جملة الآثار التي ترتبت على هذه المركزية منذ بدء تشكلها، والتساؤل عن حجم الدمار الذي ألحقته بتاريخ الإنسان الحديث، وهل كان لذلك أثر في إدارة العلاقات الدولية وإدارة الحوار بين الحضارات؟

لا يفوتنا في هذا المقام أن نشير بإيجاز إلى الكيفية التي ينظر بها الآخر إلى الغرب، إذ لا ينفك الحديث عن الغرب سواء في معناه الحضاري العام، أو في معناه السياسي والعسكري عن الحديث عن الهيمنة وحب التسلط التي يمارسها على أوسع نطاق، خصوصا في القرون الثلاثة

---

[٣٩] - يقول المبروك المنصوري: "إن الاستشراق قد ساهم في تشكيل آخرية الفكر العربي والإسلامي، فهو مغاير للفكر الغربي من جهة الأسس والبنى والمقومات، أما الإسلاموفوبيا فقد ساهمت في تشكيل آخرية العرب والمسلمين، فهم يمثلون بالنسبة إلى الغربي من جهة الرؤى والتصورات والمعتقدات والأفكار: تجاه الذات وتجاه الآخر. وفي كلا المستويين تعتبر الآخرية صناعة إلا أنها في الاستشراق فكرية، أما في الإسلاموفوبيا فهي صناعة إعلامية وكل ما تنتجه العقول والمختبرات ثم يسوق أكاديميا أو إعلاميا فهو يعتبر صناعة بغض النظر عن مدى الانطباق ومصداقية التمثل" صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي- من الاستشراق إلى الاسلاموفوبيا. ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت ٢٠١٤، ص ١٨، ١٩

[٤٠] - الاستشراق في القرون الوسطى، ص ١٦٧.

[٤١] - ن، م، ص ١٦٨

[٤٢] - عبد الله ابراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات.ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: ١٩٩٧م، ص ١٩.

الأخيرة إن لم يكن أبعد من ذلك، فمفهوم أوربا في البداية ثم الغرب لاحقا ارتبط بعمليات الإبادة التي تم تنفيذها بانتظام وعلى فترات طويلة، سواء في المستعمرات الجديدة في أمريكا الجنوبية أو الشمالية، أو في تلك البلاد التي دخلوها لنفس الهدف الأول أو لهدف نشر المسيحية، وبغض النظر عن الأهداف التي كانت أوربا– الغرب تريد تحقيقها، فإنها أدت إلى حدوث مآسي شديدة مازالت آثارها ماثلة إلى اليوم. لقد بدأت أوربا تستشعر وجودها المنفصل والمتميز عن غيرها منذ أمد ليس بالقصير، لكنها استشعرت هذا الانفصال والتميز منذ أ ن بدأت تجيش الجيوش لمحاربة(الوثنيين) فيما سمي بالحروب الصليبية، اعتقد المسيحيون أنهم الموكلون من قبل الرب لمعاقبة المعرضين عنه، فأهدروا دماء غير المسيحيين، واعتبروهم غير جديرين بالحياة، وبلغت فظائعهم حدا لا يوصف من البشاعة، حتى وهم يتلقون أصناف العلوم عن المسلمين في الأندلس، كان ذلك بغرض الانتقام منهم، وليس بقصد المساهمة في إثراء الثقافة الإنسانية. بعد ثلاثة قرون من نهاية الحروب الصليبية، نقلوا فظائعهم إلى القارة الجديدة عليهم وإن لم تنقطع فظائعهم في الأندلس البته، تقول الإحصائيات أن الإسبان لما دخلوا المكسيك قاموا بأعمال إبادة جماعية ضد السكان الأصليين، حيث انخفض عدد سكان المكسيك من ٣٠ مليون إلى ٣ مليون خلال ٢٠ عاما فقط[٤٣]. نفس الذكريات السيئة مازالت تحتفظ بها بقايا القبائل الهندية التي نجت من الإبادة في أمريكا الشمالية، فضلا عن تجارة الرقيق الأسود التي كان للأسف يشترك في إدارتها حتى بعض الفلاسفة المعروفين، مثل جون لوك[٤٤]، في تناقض صارخ بين المبادئ التي كان يدعو إليها، خصوصا المبادئ السياسية القائمة على الحريات، وبين الممارسة العملية. وهي في تقديرنا تدل بوضوح عن اعتبار البشر خارج الدائرة الأوربية في منزلة أقل من منزلة البشر داخل أوربا. وهي الرؤية التي ترسخت أكثر على أيدي كثير من الفلاسفة والساسة، ليتم السير على نهجها في حركة الاستعمار المتوحشة التي طالت كثيرا من الشعوب، وكان من نتائجها تدمير معنى الإنسانية بصورة غاية في البشاعة، حيث تم تدمير جميع البنى الحياتية خصوصا منها الاجتماعية والثقافية، ولقد كانت الحرب العالمية الأولى في أحد أسبابها مجرد تنافس على المستعمرات اصطنع لنفسه بعض الأسباب التي تبدو في ظاهرها بعيدة عن هذا الغرض هذا باختصار طرف من الصورة التي تم تشكيلها عن الغرب من قبل العالم غير الغربي، وهي صورة لم نرد من خلالها تناول

[٤٣]- عبد الحكيم عثمان، جرائم الاستعمار الاسباني، www.m.ahewar.org

[٤٤]- حول مساهمة جون لوك في تأسيس الشركة الإفريقية لتجارة العبيد، انظر: توماس باترسون، الحضارة الغربية، الفكرة والتاريخ ص ٩٠.

فظائع الغرب خارج أسواره التقليدية بشكل واف، وإلا فإنه لم يخل أي شبر في الكرة الأرضية من شرره وشره، فقد امتد ليشمل إفريقيا وآسيا كلها.

من خلال هذا يمكن أن نقول إن الصورة النمطية التي تشكلت حول الغرب هي صورة يحتل فيها التوجس مساحة واسعة، بل هي صورة مرسومة بالدماء، والغرب لا يرضى فيها بغير الغلبة واستتباع الآخر.

المبحث الثالث: الحوار؛ مبرراته، أسسه وعوامل نجاحه.

تمهيد: بعد هذه المحاولة التي كان الهدف منها تقديم خلفية فلسفية لمسألة الحوار بين الحضارات، وذلك بتفكيك مفهوم أوربا– الغرب وبيان الأفكار الرئيسة المشكلة لهذا المفهوم، وما ارتبط بها من مفهوم المركز وما يحيل إليه من تضخيم الأنا الغربي على حساب سائر الشعوب الأخرى، مما يشكل مانعا من قيام حوار متكافئ. وهذه المحاولة في تقديرنا مهمة للغاية، ذلك أن تجاوز هذه المسألة وإهمالها نحسبه ليس مفيدا في التأسيس للحوار، بل إن ذلك يبدو معرقلا له، ذلك أن هدف المعرفة المتبادل بين الأطراف التي يفترض إدارتها للحوار بين الحضارات والثقافات هو تيسير التلاقي بما يخدم الإنسانية في مجموعها.

المطلب الأول: مبررات الحوار

تمهيد: إن الناظر في طبيعة العلاقات الدولية قبل تسعينيات القرن الماضي يجدها قد غلب عليها التوجه إلى إدارة هذه العلاقات على الوجه الذي يمكن من خلاله تحقيق المصالح الاقتصادية والمكاسب السياسية إلى أبعد الحدود، لكن هذا الوضع تبدل بحكم التغيرات السريعة التي حدثت آنذاك، أهمها تفكك الاتحاد السوفياتي، وتبدل المواقع فيما كان يعرف بالحرب الباردة، حيث تغيرت وجهة الاهتمام وأخذت طابعا مختلفا، فبعد أن كانت محكومة بمقولة الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي، صارت تقسم العالم تقسيما حضاريا، ولم تعد روسيا تبعا لذلك خصما للغرب من الناحية الحضارية ولا الغرب خصما لروسيا أيضا، فتحولت بذلك الخصومة إلى حضارية أكثر منها تجارية اقتصادية أو سياسية. وتبعا لهذا التوجه تم اصطناع عداوات جديدة لم تكن قبل ذلك معروفة إلا بصورة خافتة، وقد كان التوجه الأبرز إلى اعتبار الحضارة الإسلامية هي عدو الحضارة الغربية المهيمنة، وكان هذا الارتباط بين الدين والحضارة لدى المسلمين عاملا مباشرا في الاندفاع وراء اعتبار الاسلام وحضارته عدوا، وامتد إلى اعتبار المسلمين أعداء، وتم بطريقة تعسفية وصف الإسلام بدين الإرهاب وكل مسلم بالإرهابي، مع هذه الأجواء التي تم إيجادها أصبح السلم العالمي على المحك.

ولا يقتصر الأمر على اعتبار الحضارة الإسلامية عدوا، بل يمتد إلى حضارات الشرق الأقصى، مثل الحضارة الصينية، اليابانية وغيرهما، فهذه الحضارات بما لها من مخزون أخلاقي ثري، أصبحت في نظر الغرب هي الأخرى خصما خصوصا بعد الخيبة التي منيت بها التفسيرات التي كانت ترى أن مصير شعوب الشرق الأقصى أن تذعن للغرب في نهاية المطاف. ويمكننا إيجاز مبررات الحوار في الآتي:

١- تزايد الروح العدائية تجاه الغرب: (أيها الغرب كم أكرهك..)، يمكن القول بأن هذا هو الشعار الغالب في علاقات باقي الشعوب مع الغرب حاليا على الأقل. ففي الوقت الذي بدأ فيه الغرب يستشعر الحاجة إلى الاقتراب من الآخر الغريب عنه ليفهمه، وبدأ يتعلم كيف يتخلى عن الحق باحتكاره تفسير الحياة وتأويل العالم والتخلص من الشعور بالتفوق في ما يخص توجيه الوجود الإنساني، وبدأ ينفتح على إمكانيات تتيح له النظر إلى الوجود بطريقة جديدة[٤٥]، في هذا الوقت كان العداء تجاه الغرب قد تجذر بصورة غير مسبوقة، وإن كان هذا العداء قد وجد منذ زمن طويل. لقد زادت حدة العداء في وقت غلب الظن على الجميع أن العداء سيخف بمجرد حصول البلدان التي كانت تحت الاحتلال على استقلالها، لكن الشعور العدائي العارم من قبل هذه الشعوب تجاه الغرب لم يتغير، ذلك أن الغرب لم يغير طريقة تعامله مع هذه الشعوب، حيث استمر في نهب ثرواتها بطريقة أو بأخرى، وذلك أن جشعه لم تَخِف حدته على الإطلاق، إن لم نقل إنها زادت، وفوق ذلك استمر في إثارة القلاقل وتهديد الاستقرار. ومن دون التوسع في بيان أسباب هذا العداء المتبادل فإن نتائجه المدمرة لا تخفى.

إن من نتائج هذا العداء زيادة التوترات العالمية، وانعدام الشعور بالأمان، نتيجة السعي الدائم من قبل الغرب لأجل زرع الفتن والحروب في كل مكان، أصبح هذا الأسلوب في إدارة العلاقات الدولية سببا في سيادة الشعور بتوقع الأسوء دائما، فضلا عن الاستعداد الدائم للحرب، إن هذا التشنج الحاصل في تقديرنا لهو أحد أكبر الأسباب الداعية إلى حوار بين الحضارات والثقافات، حوار يمكنه أن يحد من إمكانية حصول الأسوء.

٢- ظهور قوى صاعدة جديدة: لقد كان الغرب بثقافته الأحادية، وبسطوته الاقتصادية الهائلة هو القوة الوحيدة في العالم منذ أزيد من أربعمائة سنة إن لم تكن أكثر، ولا شك أن هذه القوة أوحت لكثيرين بأن هذه السطوة لا يمكن نقضها، وأن الغرب سيحتفظ بهذا التفوق أبدا، فهو منتهى التاريخ[٤٦]، غير أن هذه الفكرة التي روج لها فوكوياما[٤٧] في نهاية القرن العشرين بدت

[٤٥]- أنطوان غرابنر هايدر، فلسفة حضارات العالم ، ترجمة: جورج كتورة، ط١، شرق غرب للنشر: ٢٠١٠، ص ١٠.

[٤٦]- فكرة نهاية التاريخ وجدت قبل فوكوياما، حيث" يعتقد بعض الهيغليين الحديثين أن التاريخ وصل إلى نهايته، أي أن الجمعية الأخيرة،"Synthesis" تبدو ماثلة في رأسمالية ذات دولة ضعيفة التنظيم، وسوق قوية التوجه، مع وجود حكم ديمقراطي، واعتراف

وكأنها فكرة متجاوزة، فضلا عن كون كثير من الوقائع تكذبها، ذلك أن العقود الأخيرة شهدت صعودا ملفتا لقوى جديدة لم يكن يحسب لها أي حساب، هذه القوى الجديدة تريد أن يكون لها مكان تحت الشمس، هذه القضية هي ما أشار إليها "هينتنغتون"، غير أنه عوض أن يجعلها سببا في التقليل من العدوانية وسببا كافيا في التلاقي، وهذا بحكم انتشار المعرفة وما يترتب على ذلك من تقدير الموقف الإنساني العام، فإنه جعل منها مدخلا للصدام بين الحضارات، وإذا كان فوكوياما جاء مبشرا بنهاية التاريخ ببلوغه كماله في هيمنة الليبرالية والديمقراطية، فإن هنتنغتون جاء ليبشر بحرب ضروس عنوانها الصدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، تكون غايتها بسط الهيمنة بالقضاء على أي حضارة منافسة، وعندها يتهيأ المجال لنهاية التاريخ، وتتحقق نبوءة فوكوياما، بسيادة الليبرالية وما يتصل بها، لكن الثابت هو أن الغرب ليس حريصا على نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان إلا بالقدر الذي يحتاج إليه، فهذه القيم التي يراها غربية بالأساس فإن الإنسان الغربي هو الأولى بها.

إن هذه القوى الجديدة الصاعدة لا تمثل حضارات بعينها، ولذلك فإن احتمالات الصدام الجدي على الأقل في هذه المرحلة مرده إلى المصالح الاقتصادية بالأساس، ومن ثم يمكن القول بأن هنتنغتون إنما سعى إلى تقديم رؤية مستقبلية قائمة على نبوءات بعضها يعود إلى العهد القديم، وبعضها إعادة إحياء لرؤية هيغل، وهو ما يجعل من حضور الرؤية الدينية اللاهوتية في رؤية هنتنغتون أكثر وضوحا.

إن الرؤية الأكثر واقعية تقتضي العمل على تفكيك هذه الرؤى التي تغطي على الغرض الحقيقي الظاهر وتريد الالتفاف على القضية الأساسية، إذ المؤكد أن الاقتصاد هو المحرك الأساسي للغرب في أي نزاع، ومن ثم فإن مراعاة المصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى هي التي ينبغي الانتباه إليها، ذلك أن تمركز الثروة في جهة معينة بصورة غير عادلة هو أكبر سبب يمكن أن يؤدي إلى التصادم، إذ مع الاقتصاد يتأجل كل شيء، وهذا هو منطق الغرب نفسه. ومن ثم فإن هذه القوى الصاعدة الجدية التي تتمدد كل يوم يمكن أن نقول إنها صارت طرفا في المعادلة، ولم يعد هناك قطب واحد فاعل، بل هناك أقطاب متعددة، وإلى أن يقتنع

بحقوق الانسان، فلا وجود لنفي مقبول لهذه المؤسسات، ولا لانتصار مقبول على هذه المؤسسات. والتقدم التاريخي منذ الآن فصاعدا، لا يعني سوى رأسمالية متحسنة ومزيد من الديقراطية وحقوق الإنسان"، غونار سكيربك، نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين. ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، ط١ن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠١٢، ص٦٦٤، ٦٦٥. والفكرة نفسها في الماركسية، حين ترى أن النهاية تكون بسيادة البروليتاريا.

[٤٧]- فرنسيس فوكوياما (١٩٥٢-)، اقتصادي وسياسي أمريكي، اشتهر بكتابه: نهاية التاريخ والإنسان الأخير. ترجمة: فؤاد شاهين وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٣.

العقل الغربي بأنه عقل محكوم ببيئته وأن دعوى عالمية أحكامه ملتبسة بالأوهام، إلى ذلك الحين العالم يحتاج إلى شيء من التعقل لتفادي الكارثة.

المطلب الثاني: الأسس العامة للحوار:

١-الاعتراف بالاختلاف على أنه فطرة إنسانية: ويتم ذلك بمراجعة المفاهيم التي تقوم عليها المركزيات، وإخضاعها للنقد[٤٨] وطرح ما كان منها مخالفا للفطرة الإنسانية، وما توافقت عليه العقول السليمة. إن التمركز حول الذات ورؤية الأشياء من خلالها على الدوام قد يكون وثيق الصلة بالفطرة البشرية، غير أن هذا التمركز يمكن عده واردا في فترة الطفولة من حياة الإنسان، حين يكون الطفل متمسكا بأشيائه، ومطالبا بأحقيته في ملكية ما في أيدي الآخرين لمجرد أنه رآه، إن أمر البشرية في تقديرنا لا يختلف من هذه الناحية، فالتجمعات البشرية تتطور وتتسع مداركها على الدوام، وبقدر اتساع دائرتها يزداد تعارفها مع غيرها، وبالقدر نفسه تتخلى عن النزعات الطفولية فيها، وعلى ذلك فإن قيمة أي حضارة من الحضارات ترتبط بوجه أو بآخر بمدى انفتاحها على الآخر، انفتاحا يثريها ويعمق من توجهها الإنساني العام. ومن هذا المنظور نحسب أن الحضارة الغربية الحديثة مازالت لم تتخلص من نزعاتها الطفولية، ويتجلى ذلك خصوصا في دعوى أفضلية الجنس ذي الأصل الأوربي على غيره من الأجناس، والادعاء بأن هذه الأفضلية مردها إلى الجينوم، وهو ادعاء يكذبه العلم الحديث نفسه، ثم إن هذه الأفضلية إن كانت لها جذورها البيولوجية، فإن المفترض فيها ألا تتأخر لوازمها، وهو ما يكذبه التاريخ، ذلك أن الإنسان ذي الأصل الأوربي مر كغيره من بني البشر بمراحل من السقوط وأخرى من النهوض، وعلى فرض صحة التقسيم التاريخي الغربي الذي صار معمما، فإن هذا التقسيم يشير بوضوح إلى أن الإنسان الأوربي– الغربي مر بحقبة طويلة من التخلف المريع سواء من الناحية المادية وحتى من الناحية الأخلاقية، وهو ما يبطل فرضية سمو العرق الأوربي وأفضليته على غيره. إلى جوار هذه المقالة، نجد مقالة أفضلية المسيحية على غيرها من الأديان، وقضية المسيحية ليست محسومة حتى في النطاق الغربي ذاته، والانتقادات الحادة التي توجه إليها دليل على ذلك، هذا فضلا عن كون الإنسان الغربي نفسه وقع ضحية لتعسفها لفترة طويلة من الزمن، وهو ما يجعل من القول بأفضلية الديانة المسيحية على غيرها مجرد مجازفة. والمسألة نفسها فيما يتصل بتلك الأوهام المتعلقة بالتاريخ، ذلك أن اصطناع تاريخ معين والانتساب إليه والتعصب له منزع طفولي بامتياز،" فالتراث الإغريقي الروماني

[٤٨]- ظهرت محاولات جادة في هذا المضمار نذكر منها كتاب: إعادة التفكير في الحداثة؛ نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي. ترجمة: ابتسام سيد علام وحنان محمد حافظ، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٦.

كسلف عرقي مزعوم، نجد أن الأوربيين لم يتذكروه أو بالأحرى، لم يوظفوه إلا عندما أحسوا بالحاجة إلى شعارات جديدة تشجع على الفردية والحرية الشخصية، وتمجيد مملكة الإنسان في الأرض، والرغبة في إعادة اكتشاف العالم والإنسان معا بعيدا عن سطوة الشروح الكنسية لسفر التكوين"٤٩ وإلا فإن هذا التراث اليوناني عرفه الغرب عن طريق الحضارة الإسلامية.

إن اليونان وإن كانوا أبدعوا في كثير من مجالات العلوم والمعارف الإنسانية، وقدموا لها نماذج رائعة، فإن هذا لا يعني أنهم من طينة أخرى، فقد أحسنوا الإفادة من الحضارات السابقة عليهم، وتلك الحضارات التي عاصروها، وقد كانوا في مجالات عدة تلاميذ صغارا لدى قدماء المصريين وغيرهم، وليس هذا مما يقل من شأنهم أو يحط من قيمة ما قدموه للبشرية، بل على العكس من ذلك تماما، فأقصى ما يمكن أن يقال فيهم أنهم أحسنوا الأخذ فأحسنوا العطاء، وكذلك الحضارات تتفاعل فيما تتفاعل فيما بينها لتقدم في النهاية ثمرة اجتهادها لسائر الشعوب.

وتفكيك مقولات المركزية لدى الحضارات الفاعلة لا يقتصر على المركزية الأوربية- الغربية وحسب، بل يمتد لكل الحضارات والثقافات، وهو يمثل أحد الطرق السليمة المؤدية إلى التفاعل لإيجابي، ذلك أن كسر الأسوار التي تختبئ وراءها مثل هذه المركزيات المتشنجة من شأنه أن يفتح الباب واسعا أمام التعارف، وبالمقابل كلما زاد الوثوق في هذه المركزيات كلما قلت حظوظ التعارف السليم. إن ازدياد سطوة المركزيات من شأنه أن يقلل من حظوظ التعارف، وفي المقابل يرسم الخطوط الزائفة بين الشعوب، تلك الخطوط التي رسمتها الإيديولوجيات بعيدا عن مقتضى الفطرة البشرية، وهو ما يجعلنا نقول إنه كلما زادت سطوة المركزيات كلما زاد انكفاء الحضارات على نفسها، وقلت مقدرتها على التفاهم، في حين "يؤدي كل تبادل مع الغريب إلى جعل الفكر الخاص نسبيا في نقطة انطلاقه وفي نتيجته. فالقول باحتكار تفسير العالم قد أخذ يتناقص. ونشهد حاليا إمكانية فعلية لتبادل متقارب، وله القيمة الفكرية نفسها، وتفسيرات العالم وتوجهات الحياة، ما يمكن أن يوصل جميع المشاركين فيه إلى غنى ثقافي، اقتصادي وسياسي قوي"٥٠

إن عملية تفكيك المركزيات الإقصائية خصوصا المركزية الغربية تقتضي الاعتراف بالتعددية الثقافية، ولا شك أن هذا من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الثقافات التي تبدو مهمشة من أجل أن تعبر عن نفسها، ويمكن في هذا الشأن الإشارة إلى تلك الآراء التي يدعو

---

[٤٩]- صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات؛ إعادة صنع النظام العالمي. ترجمة : طلعت الشايب، ط٢ ، ١٩٩٩، ص ١٢، ١٣.

[٥٠]- أنطوان غرابنر هايدر، فلسفة حضارات العالم؛ نظريات الحقيقة وتأويلها. ترجمة جورج كتورة، ط١، مؤسسة شرق – غرب ،٢٠١٠، ص١٢.

لها "تشارلس تايلور"٥١، "وبول ريكور"٥٢، و"أكسل هونيث"٥٣، وهي آراء وإن كانت في تقديرنا لا تخرج عن الحيز الثقافي الغربي، إلا أن إمكانية الإفادة منها تبقى قائمة.

إن تفكيك المقولات المركزية القائمة على التفاضل بين الشعوب والثقافات المخالفة لمقتضى الفطرة، بإمكانه أن يثمر آثارا جيدة على مستوى الإنسانية كلها.

٢-احترام الأديان وتفعيل دورها التوحيدي بين الناس: من الأسس التي ينبغي توفرها في الحوار الناجح بين الثقافات والحضارات احترام الأديان، والسماح لها بالتعبير عن نفسها، يبدأ هذا من إزاحة المقولات التي تتردد بين وقت وآخر، تلك التي ترى أن الأديان في مجملها هي واحدة من أكبر الأسباب المؤدية إلى التناحر بين بني البشر، ذلك أن هذه المقولة لا تقوم على أساس سليم من التاريخ، فالأديان على اختلافها إنما جاءت في الأصل لتساعد الناس على التعارف السليم بعيدا عن علاقات الاقصاء والاعتداء. إن ظهور الأصوليات التي تنسب إلى الأديان بين وقت وآخر لا يعبر في حقيقة الأمر عن الروح الكامنة في الأديان، بل إن صلتها بالأديان صلة ضعيفة، وهذه الأصوليات في واقع الحال مؤشر غير صحي يدل على أمور عدة؛ أهمها التوظيف الإيديولوجي للأديان، حيث أصبحت في قلب المعركة، بصورة لا تخدم الأديان من أي وجه، إذا لم نقل إنه تشوهها.

إن من احترام الأديان أن لا توصم بالإرهاب أو تنسب إليها الأفعال المشينة المسيئة للإنسانية، بل إنه من المناسب العمل على تفعيل دورها التوحيدي بين الناس جميعا. والناظر في مبادئ أهم ديانتين سماويتين ونعني بهما المسيحية والإسلام، نجد أن القيم المشتركة بينهما، تلك الداعية إلى نشر الرحمة والتآلف بين البشر تغطي مساحة واسعة في تعاليمهما، والأمر لا يختلف بالنسبة للديانات الشرقية الأخرى، التي يمكن القول إن بعضها عبارة عن تعاليم أخلاقية عملية أساسا، وهو ما يجعلها تستجيب لنداء الأخلاق بلاشك.

٥١- تشارلس تايلور، فيلسوف كندي معاصر، له اشتغال بالفلسفة السياسية، والخلقية. يقول تايلور:" فهناك عنصر كبير من الأمل. وهو أمل أراه متضمنا في المذهب التوحيدي اليهودي- المسيحي(مهما كان مروعا سجل انصاره في التاريخ)، وفي وعده المركزي بالتأكيد الإلهي على البشر، وهو كلي وأكثر مما يستطيع البشر أن يصلوا الله من دون عون" منابع الذات ، تكون الهوية الحديثة. ترجمة حيدر حاج إسماعيل. ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٤، ص ٧٤١. وظاهر أن ما أوردناه يدل دلالة صريحة على عودته إلى المجال الحضاري الغربي ذي الأصول اليهودية – المسيحية.

٥٢- بول ريكور فيلسوف فرنسي(١٩١٣- ٢٠٠٥)، متدين، بروتستانتي، للمزيد انظر: مجموعة من الكتاب، مسارات فلسفية. ترجمة محمد ميلاد،ط١، دار الحوار للتوزيع، اللاذقية ٢٠٠٤، ص ٧٥ وما بعدها.

٥٣- فيلسوف ألماني(١٩٤٩-)يعد من أقطاب الجيل الثالث في مدرسة فرانكفورت. انظر: كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى أكسل هونيث،ط ١، الدر العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

إن دين الإسلام، ومع أنه يرى أن الحقيقة الدينية النهائية هي تلك التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما سواه فهو باطل، إلا أنه يعترف بوجودها واقعا، فاختلاف الدين بناء على ذلك ليس مبررا لإعلان الحرب أو لإهدار الدم، بل إن حرية الدين مكفولة، " لا إكراه في الدين"(سورة البقرة، الآية٢٥٦). فالإسلام جعل اصل العلاقة بين الناس هي التعارف، ولم يجعل العلاقة علاقة تقاتل، قال الله تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)(سورة الحجرات، الآية ١٣).

إن الأديان على اختلافها تمثل مخزونا أخلاقيا كبيرا، وهذا المخزون من شأنه أن يساهم في التقريب بين الشعوب، فلا يخلو دين سواء كان سماويا أو أرضيا من الدعوة إلى قيم الأخوة والمحبة والصدق والإخلاص، وقيم التعارف والتعاون والتكافل، وعليه فإنه من المناسب العمل على تجاوز الرؤى السلبية للأديان، خاصة تلك التي نمت في أوربا منذ عصر النهضة، وتمت تغذيتها بنزعات فلسفية متطرفة، فبدل أن يكون الاعتراض متوجها إلى دين بعينه لسبب من الأسباب تخص ذلك الدين، نجد الإنسان الغربي اندفع بكل قوته في رفض سائر الأديان، معمما قناعاته التي حصلت لديه بمقتضى تجاربه على سائر الأديان.

٣- إبراز المشترك الإنساني العام: قد يكون من المفيد في مقام التأسيس للحوار الجاد العمل على إظهار المشتركات الإنسانية، ونعني بها تلك التي يشترك فيه الناس جميعا بمقتضى الفطرة، ف"رغم اختلاف الطبائع البشرية، وتنوع المجتمعات الإنسانية، وتشتت غايات البشر بين الخير والشر، والصلاح والفساد، إلا أن لكل إنسان على ظهر الأرض حاجات أساسية لا يمكن غض الطرف عنها أو تجاهلها"٥٤، وهذه الحاجات لا تقتصر على جانب دون جانب، بل إنها تشمل جميع الحاجات الإنسانية، سواء منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فالناس جميها بحاجة إلى نمو اقتصادي، وإلى تكفل اجتماعي وإلى استقرار سياسي. ولا شك أن مراعاة هذه الحاجات من شأنه أن يخلق حدا أدنى من التفاهم بين جميع الشعوب، يؤدي إلى إقامة علاقات اقتصادية متوازنة، متجاوزة علاقات الاستغلال التي تهيمن على المعاملات الاقتصادية الحالية، ثم إن استشعار الحاجة إلى الاستقرار السياسي يؤدي إلى الاحترام المتبادل. والشأن نفسه يسري على سائر الجوانب الأخرى، بما فيها المشتركات الأخلاقية.

٥٤- راغب السرجاني، المشترك الإنساني: نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ط١، مؤسسة إقرأ، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٣٠٧.

المطلب الثالث: شروط الحوار الناجح.

تمهيد: إن نجاح الحوار على الوجه الذي يحقق للإنسانية سلما مستداما، وتنمية مستدامة يعود نفعها على البشرية جمعاء، يحتاج إلى جملة من الشروط يجب أن تتوفر، ولسنا معنيين هنا بالخوض في الشروط الإجرائية الظرفية، فهذا علاجه بيد الساسة والاقتصاديين وهلم، إنما الذي يعنينا من هذه الشروط هو تلك المرتبطة بالناحية المبدئية، وإذا شئت فقل إنها تلك الشروط المرتبطة برؤية الإنسان لنفسه ولمن يتشارك معهم في مفهوم الإنسانية، فالفرق ظاهر بين من يرى أن الفطرة الإنسانية واحدة، وأن الإنسان واحد، وأما الفروق الظاهرة فالظروف والملابسات هي أوجدتها، وبيت من يرى التفاوت بين البشر أصيلا، ومن ثم ينطلق من هنا في التمييز بشتى صنوفه بين بني البشر، انطلاقا من هذا نرى أن من شروط الحوار الناجح ما يأتي:

١- التخلص من الصور النمطية: الغرب هو أهم حلقة في حوار الحضارات والثقافات، وبفعل هيمنته في القرون الأخيرة في جميع لمجالات، بما فيها جانب إنتاج المعرفة، فإن أحد أكبر الجوانب التي استحوذت على ذهنية الإنسان الأوربي- الغربي هي محاولته التعرف على الغريب الذي ظل لفترة طويلة ينظر إليه نظرة شك وريب، غير أن الجهود التي بذلها فلاسفة أوربا خصوصا والغرب عموما، أثمرت في هذا الجانب تشكيل صورة نمطية لا تختلف بشكل كبير عن تلك الموروثة عن القرون الوسطى إن لم تكن أشد سوداوية، ويمكن القول إن هذه الصور النمطية تم استدعاؤها من القرون الوسطى دون فحص علمي، بل إن مجمل الدراسات التاريخية والأنتروبولوجية أضحت هي الأخرى مروجة لهذه الصورة[٥٥]. لقد كانت العناصر المشكلة لهذه الصور النمطية تلحق الجوانب العرقية والتاريخية والثقافية والدينية وغيرها، وهي في مجملها صور مليئة بالمغالطات وسوء الفهم، المقصود في أغلب الأحيان، وسواء كانت هذه الصور متعلقة بالمسلمين أو بغيرهم من الشعوب خصوصا الصينية والهندية وغيرهما، فإن الحال لا يختلف، إذ أن الأوصاف السلبية دوما حاضرة، فغالبا ما كانت توصف هذه الشعوب بالهمجية والتوحش، وأديانها بالأسطورية والجبرية والوثنية والدموية...وغيرها، وتوصف ثقافاتها بالسذاجة والعشوائية وعدم التنظيم، ورغم الإقرار في بعض الأحيان بأن هذه الشعوب كان لها نصيب من الحضارة والثقافة، إلا الحط من قيمتها يبقى ملازما لأي حديث عنها باستثناء حالات جزئية لا تنقض الحكم. في مقابل هذا كان لمختلف الشعوب الأخرى صورة عن الغرب تشكلت منذ قرون وتم ترسيخها لاحقا بفعل المعاناة التي عانتها هذه الشعوب

[٥٥]-للمزيد حول هذه النقطة ، انظر: جون.م. غانم، الاستشراق في القرون الوسطى، مرجع سابق، ص ١٦٧- ١٧٠

من جانب أوربا– الغرب[٥٦]. إن التخلص من هذه الصور النمطية يمكنه أن يسهم في تيسير سبل التلاقي، بحيث يتم التعامل وفق معطيات الحاضر، بعيدا عن كل صور الشيطنة التي غالبا ما يتم استدعاء التاريخ للتدليل على صحتها، كما يوظف الإعلام في إشاعة كثير من المصطلحات والمفاهيم المسيئة[٥٧]، التي ترسخ تلك الصور النمطية. إننا نحسب أن هذا أول الطريق للقاء يعود بالنفع على الانسانية كلها.

٢– الالتزام بقيم الاحترام ومراعاة مصالح الشعوب: لا يمكن لأي حوار أن ينجح ما لم ينطلق من الاحترام المتبادل، كما لا يمكن أن ينجح ما لم يكن مبنيا على المساواة، فالاستعلاء والقهر وما في معناهما لا يمكن أن يثمرا حوارا، وقد صرح بهذا أنطوان غرابنر حين قال: "نحن لا يمكننا التقدم في الحوار بين الحضارات إلا حين نتحول إلى نقاش نكون فيه على قدم المساواة. إذ فقط حين نضع أنفسنا على درجة متساوية من تكافؤ الحياة، يصبح بالنسبة لنا التبادل الاجتماعي والثقافي مع عوالم الحياة الغربية ممكنا"[٥٨]. ليس من شك في أن مصالح الشعوب متداخلة، سواء كانت مصالح سياسية أو اقتصادية، ونجاح التلاقي بين الشعوب يقتضي مراعاة هذه المصالح على الوجه الذي يكفل حق الجميع مع الجميع، ودون ذلك لا يمكن أن يتحقق الاستقرار لهم جميعا.

المطلب الرابع: عوامل نجاح الحوار

يحتاج حوار الحضارات والثقافات[٥٩] إلى توفر جملة من العوامل تساعد في نجاحه، وهذه العوامل متنوعة ومتداخلة، وفي تقديرنا فإن أهم العوامل تتمثل في الآتي:

١–تشجيع الأصوات الداعية إلى الاعتراف والتعارف: سبقت الإشارة إلى أن هناك اصواتا في الغرب بدأت تعبر عن نفسها داعية إلى تقييم إنجازات التنوير فيما يتصل بجملة من المقولات المتعلقة بالإنسان، ذلك أن فكرة التنوير في أصلها قامت على مبدأ تحرير الإنسان والمجتمع من كل صور التسلط والقهر، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو؛ "كيف أن التنوير الذي كان في البداية – أي في تلك اللحظة التأسيسية– تعبيرا عن فكرة التقدم الإنساني، وعن فكرة تحرير

[٥٦]- هذه الفكرة تم التعرض لها في موضع سابق من هذا البحث.

[٥٧]- كثير من وسائل الإعلام تؤدي دورا هادما لقيم التلاقي، فبدل العمل على إظهار القيم الإيجابية في الأديان والثقافات والدعوة إلى تفعيلها، نجدها تنبش في الحواشي لإظهار السلبيات، ومن ذلك نحت مصطلحات يصعب الخلاص منها رغم محمولاتها السلبية الملفقة مثل الإسلاموفوبيا، الإرهاب الإسلامي، والتي على شاكلتها.

[٥٨]- أنطوان غرابنر هايدر، مرجع سابق، ص ١٨

[٥٩]- درجنا في هذه الدراسة على توظيف المصطلحين معا، وإن كان هناك فرق بينهما، فالثقافة متضمنة في الحضارة ، وهي جزء منها، وسبب إيرادنا للمصطلحين معا يهدف إلى فتح الباب أمام حوار الثقافات، مثل حوار الأديان(وإن كنا نرى أن الإسلام ليس ثقافة في أصوله)، والحوار بشأن حقوق الإنسان وغيرها.

الإنسان٦٠، سرعان ما تحول إلى أسطورة تخفي السيطرة والهيمنة؟ أو بعبارة أخرى كيف نفسر تدمير العقل التنويري لنفسه بحيث أصبحت الإنسانية تخوض في حالة جديدة من البربرية بدل أن تصل إلى حالة إنسانية حقيقية؟"٦١، هذه بعض من جملة الأسئلة التي طرحتها النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت٦٢ للعقل التنويري، وهي بالقدر الذي تدل على مأزق التنوير وفشله في العبور إلى الحرية بالمعنى الذي يشمل الإنسان من حيث هو إنسان، فإنها تدل في الوقت على استفاقة من شأنها أن تسهم في تفكيك مقولات الصراع التي روج لها فلاسفة التنوير ويمكن عدها من أكثر المقولات شهرة وأكثرها رواجا لديهم. وهي كما سبق بيانه هيمنت على الذين جاؤوا بعد ذلك، وتم تلقيها بكثير من حسن الظن وعدم الفحص.

قد يكون هذا في هذا شيء من التفاؤل المبالغ فيه، وذلك أن الدعوة إلى الاعتراف يظهر عليها أنها لم تأخذ طابعا عالميا، وهو ما يجعلها خاصة بالمجتمعات الغربية، أي أنها تمثل وجها من وجوه الحوار التي يجريها العقل الغربي مع نفسه، فدعوة "تشارلس تايلور" إلى الاعتراف لا تتجاوز حدود الغرب، بل قل لا تتجوز حدود كندا، وهو إنما يدعو إلى الاعتراف بتنوع الثقافات داخل المجتمع الكندي، بوجه يرفع الظلم عن الأقليات الثقافية والدينية، وهو ما يمكنه تحقيق الاستقرار المطلوب داخل كندا، والأمر نفسه يصدق على "نانسي فريزر" في الولايات المتحدة، حينما تركز على الاعتراف بالجانب المتعلق بالهويات الثقافية والاختلافات الاثنية٦٣، ونفس الشيء بالنسبة لأكسل هونيث، الذي يعمل على تطوير رؤية أستاذه هابرماس في التواصل ودور اللغة فيه، حين يرى أن عملية التواصل مشروطة بالسياقات الاجتماعية والثقافية الخاصة، لكنها تبقى أيضا ذات طابع كوني٦٤، وهنا نلحظ كأن العقل الغربي مازال يدور حول نفس النقطة وحول المركز نفسه، حين يعمم تنظيره ليجعله ذا طابع

٦٠- في تقديرنا رد الفعل هذا نتج عن القراءة السلفية التمجيدية لتراث التنوير، ذلك أن فلاسفة التنوير في حقيقة الأمر لم يكونوا منفصلين عن واقعهم، بل إن أكثرهم كانوا خاضعين لفكرة المركز، وبعضهم كان عنصريا متطرفا، ومن ثم كانت دعوتهم إلى الحرية تخص المجتمعات الأوربية، بل ربما بعضها فقط، ومثال ذلك" جون لوك" الذي يعد أحد أشهر ثلاثة فلاسفة نادوا بالعقد الاجتماعي، لكنه في الوقت نفسه كان منخرطا في تجارة الرقيق، وكان أحد منظري العبودية في أمريكا، ولذلك نرى أن العملية النقدية لفكر التنوير جاءت متأخرة.

٦١- كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى أكسل هونيث، ص ١٣.

٦٢- أشهر روادها الأوائل: ماكس هوركهايمر، ثيودور أدورنو، هربرت مركوز، ثم الجيل الثاني: يورغن هابرماس وكارل أوتو، فيلمر، ثم جيل أكسل هونيث. انظر: كمال بومنير، النظرية النقدية ص٢٥

٦٣- كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى أكسل هونيث ، ص١١٦، ١١٧.

٦٤- المرجع نفسه، ص ١١٨.

كوني. إلى هنا يمكن عد مدرسة فرانكفورت بآراء ممثليها الداعية للاعتراف وجها يمكن تطويره وإخراجه من دائرة الخصوصية الغربية ليشمل الإنسانية كلها.

توجد أصوات تبدو أكثر تفهما لما يجري، وأكثر إدراكا لخطورة الوضع، في الوقت الذي تملك فيه رؤية عالمية متجاوزة لحدود الفكر الغربي التي ضربها حول نفسه٦٥، ويمكننا استحضار نموذج" هارالد موللر" في كتابه" تعايش الثقافات"، إذ يبدو أكثر تحررا من الرؤية الغربية، فالغرب في تقديره في الوقت الذي يعيش ارتباكا فإن بعض علماء الغرب يحاولون إقناع الآخرين بالنموذج الغربي وإجبارهم عليه٦٦. وهو إذ يدعو إلى التعايش بين الثقافات خصوصا مع العالم الإسلامي، فإنه يرفض الطرح الذي قدمه هنتنغتون حول صدام الحضارات، ويرى أن التعايش ممكن شرط أن يتخلى الغرب عن نشر نموذجه على أجنحة صواريخ كروز٦٧.

ليست هذه المراجعات خاصة بالفضاء الفلسفي الغربي وحسب، بل إن هناك كثيرا من الأصوات ترتفع في الشرق من أدناه إلى أقصاه، ففي العالم الإسلامي نسمع أصواتا كثيرة داعية للتعايش، وهذا من أجل المحافظة على مكتسبات الإنسانية، وليس صحيحا تفسير هذه المطالبات بحالة العجز التي يعيشها العالم الإسلامي، وأن هذه الدعوات الصادرة منه هي دفاع العاجز حين عدم الحيلة، وهذا قد يبدو صحيحا في الظاهر، لكن المؤكد أن كثيرا من هذه الأصوات هي أصوات مخلصة نابعة من روح الإسلام التي تدعو إلى إحلال السلام.

حين ننتقل إلى أقصى الشرق حيث اليابان مثلا، تلك البلاد التي تبدو وقد أخذت بأسباب التقنية الغربية وكأنها تخلت عن ثقافتها، لكن المتابع يدرك أن هذا ليس صحيحا، ذلك أن كل المؤشرات تشير إلى أن اليابانيين بنوا حضارتهم دون أت يتخلوا عن ثقافتهم، بل إن حضارتهم تم بناؤها نفسه بتوجيه من مبادئ الديانة الشنتوية٦٨. والأمر نفسه بالنسبة للصينيين.

٢-تفعيل دور الإعلام: الإعلام له دور كبير في توجيه الرأي العام، بل قل هو الذي يصنعه، وبالنظر إلى دوره الكبير صار يعرف بالسلطة الرابعة، وإذا كان الإعلام بهذه الأهمية فمن المناسب تفعيل دوره في هذا المجال، وإذا كان الإعلام في الغرب له النصيب الأكبر في

٦٥- في تقديرنا لم يكن مفهوم العالمية لدى فلاسفة التنوير مثلا يحمل المدلول نفسه المتعارف عليه اليوم، فكانوا إذا أطلقوا هذا المفهوم فإن المقصود به عموم أوربا لا غير، راجع : جاكلين روس، مغامرة الفكر الأوربي: قصة الأفكار الغربية. ترجمة: أمل ديبو. ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي: ٢٠١١مرجع سابق، ص ٢٣١، ٢٣٢.

٦٦- هارالد موللر، تعايش الثقافات، ص ٦.

٦٧- المرجع نفسه ص ٦.

٦٨- تناول المبروك المنصوري هذه المسألة في كتابه: الدين والحداثة والقيم، دراسة في الفكر الديني الياباني والفلسفي الشرقي. ط١، الدار المتوسطية للنشر، تونس: ٢٠١٧/ ١٤٣٨.

تقديم صورة نمطية مشوهة عن الآخر، منها صار يعرف هذا الأخير لدى الجمهور، فإنه بإمكانه أن يؤدي الدور نفسه في إصلاح ما أفسد. غير أن أهم عقبة في هذا الطريق هي أن الإعلام متموقع داخل البلدان الغربية بصورة لا يمكن مقارنتها بغيرها، والإعلام في هذه البلاد يستمد قوته من الطابع الليبرالي الذي يعمها، ومن ثم فإن أي حديث عن توجيه الإعلام إلى هذا الهدف قد يبدو قليل الجدوى في المرحلة الراهنة على الأقل.

يمكن أن يكون الإعلام داعما لهذا التوجه إذا غيرت النخبة من قناعاتها أولا، ذلك أن حملة التشويه الموجهة إلى الآخر بدأتها الدوائر الأكاديمية، مصطنعة المنهج العلمي، ومستفيدة من نتائجه، ليقوم الاستشراق بإكمال المهمة، ويشوه ثقافته الشرق، وينكر عليه الإبداع من أي وجه. ليأتي الإعلام بكل وسائله ويشوه الشرق، ويشوه إنسان الشرق.

الخاتمة: قد يجد المطالع لهذه المحاولة نبرة من التشاؤم غالبة عليها بشأن مستقبل حوار الحضارات، وذلك أننا لم نرد أن نتناول الموضوع بطريقة عاطفية تقفز على الحقائق الموضوعية، فغالبا ما يكون خطاب المناسبات مشبوب العاطفة، لكن نتائجه العملية غالبا ما تكون هزيلة، لقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة أن عقدة الاستعلاء مازالت مسيطرة على العقل الغربي، وهذا على الرغم من ظهور رؤى جديدة تدعو إلى تخطي الحدود التي رسمتها الحضارة الغربية الحديثة، غير أن بعض هذه الدعوات صنفت على أساس أنه معاد للحضارة الغربية نفسها.

مثلت المركزية الغربية بعناصرها أحد أهم المعوقات التي تمنع الحوار الناجح، فمن دون تفكيك هذه المكونات ومحاولة فهمها خارج السياج الأسطوري الذي أحيطت به من قبل نظريات فلسفية واجتماعية، ورؤى أخلاقية، يبقى من الصعب أن ينخرط الغرب في حوار متكافئ للحضارات، ذلك أن التعارف البناء يبدأ بالاعتراف بالاختلاف، مع انخراط النخبة المفكرة في عملية تفكيك الأوهام المخالفة للفطرة البشرية، على أن يكون إسهام الإعلام كبيرا، إذ ينبغي أن يبدأ بإصلاح ما أفسد، وتصحيح ما شوه، وأن يعيد رسم صور الآخر كما هي لا كما يتمثلها الإيديولوجيون. وهذه المسؤولية يتحملها الجميع، ويساهم في حلها الجميع.

قائمة المراجع:

١-آرثر هرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، ترجمة: طلعت الشايب، ط٢، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٩.

٢-أنطوان غرابنر هايدر فلسفة حضارات العالم، ترجمة: جورج كتورة، ط١، شرق غرب للنشر: ٢٠١٠.

٣-ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤-تشارلس تايلور، منابع الذات، تكون الهوية الحديثة،. ترجمة: حيدر حاج إسماعيل. ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٤.

٥-توماس ماستناك، السلام الصليبي. ترجمة بشير السباعي، ط٢، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٩

٦-جاكلين روس، مغامرة الفكر الأوربي؛ قصة الأفكار الغربية. ترجمة: أمل ديبو. ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي: ٢٠١١.

٧-جون.م. غانم، الاستشراق في القرون الوسطى، ترجمة: عبلة عودة. ط١، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي ٢٠١١.

٨-راغب السرجاني، المشترك الإنساني؛ نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ط١، مؤسسة إقرأ، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٣٠٧.

٩- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي؛ فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم. ترجمة فاضل جتكر. العبيكان، كلمة ، ط١ ١٤٣١هـ.

١٠-ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب. ترجمة: محمد محمود التوبة، العبيكان، كلمة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١-صمويل هنتنغتون، صدام الحضارات؛ إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، ط٢ ، ١٩٩٩م

١٢-عبد الإله بلقزيز، نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠١٧.

١٣-عبد الله ابراهيم، المركزية الغربية؛ إشكالية التكون والتمركز حول الذات.ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: ١٩٩٧م.

١٤-غونار سكيربك، نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين. ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، ط١ن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠١٢

١٥-فريدريك نيتشه، عدو المسيح. ترجمة: جورج ميخائيل ديب،ط٢

١٦-فريدريك هيغل، العقل في التاريخ. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام. ط٣،دار التنوير، بيروت: ٢٠٠٧.

١٧-قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية. سلسلة عالم المعرفة، العدد١٤٩.

١٨-كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى أكسل هونيث، ط ١، الدر العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٩-ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي.

٢٠-المبروك، المنصوري، الدين والحداثة والقيم، دراسة في الفكر الديني الياباني والفلسفي الشرقي. ط١، الدار المتوسطية للنشر، تونس: ٢٠١٧/ ١٤٣٨.

٢١-المبروك المنصوري، صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي- من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا. ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت ٢٠١٤.

٢٢-نيال فرغسون، الحضارة ؛ كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق. ترجمة: سعيد محمد الحسنية ، ط٢، شركات المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠١٤.

٢٣- هارالد موللر، تعايش الثقافات ومشروع مضاد لهنتنغتون، ترجمة: إبراهيم أبو هشهش، دار الكناب الجديدة المتحدة، فرنكفورت: ٢٠٠٥.